موقف المستشرقين
من السنة النبوية المشرفة

بقلم أ.د/أبولبابة حسين

منشأ الاستشراق :

أمام الهزائم التي مني بها الصليبيون في حروبهم الظالمة ضد البلاد الإسلامية، والتي دامت قرابة قرنين من الزمن (1099 - 1270م) عبر تسع حملات غاشمة، بداية من حملة "قود فري أوف بويون - Godfrey of Bouillon" على القدس سنة 1099م والتي ذبحوا فيها أكثر من سبعين ألفا من المسلمين داخل أسوار المدينة المقدسة وفي رحاب المسجد الأقصى، وانتهاء بحملة "سان لوي -Saint louis" سنة 1270م على تونس[1] قصد حمل ملكها على اعتناق المسيحية لتنصير شعبه، وإخراجه من نور الإسلام دين الفطرة والتوحيد إلى ظلمة عقائد المسيحية المحرفة التي تقوم على التثليث وتأليه السيد المسيح عليه السلام والفداء وغيرها.. أمام فشلهم في حروبهم العدوانية هذه، فكروا في الاستيلاء على بلاد الإسلام ثقافيا وفكريا[2]، تمهيدا لتحقيق آمالهم الكبرى في تمسيح المسلمين، فأنشئوا هذا التنظيم المسمى "بالاستشراق".

تعريف الاستشراق:

بتصفح كتب تاريخ الاستشراق، نقف على جملة وافرة من التعريفات للاستشراق وهي وإن تعددت صيغها فإن معانيها متقاربة، ولعل أقربها و أوعبها لطبيعة الاستشراق وخصائصه وأهدافه، تعريف د. أحمد غراب حيث عرفه بقوله: "هو دراسات أكاديمية يقوم بها غربيون.. من أهل الكتاب بوجه خاص للإسلام والمسلمين من شتى الجوانب، عقيدة وشريعة وثقافة وحضارة وتاريخا ونظما وثروات، وإمكانيات بهدف تشويه الإسلام ومحاولة تشكيك المسلمين فيه وتضليلهم عنه، وفرض التبعية للغرب عليهم ومحاولة تبرير هذه التبعية بدراسات ونظريات تدعى العلمية والموضوعية، وتزعم التفوق العنصري والثقافي للغرب المسيحي على الشرق الإسلامي"[3]

وموقف الاستشراق من الإسلام الذي يصوره هذا التعريف، ليس ظاهرة جديدة في تاريخ العلاقات بين الإسلام ومناوئيه، وإنما هو امتداد لظاهرة قديمة ترجع بداياتها التاريخية إلى ظهور الإسلام نفسه حيث واجهه المشركون بالعداء، ونثروا في وجهه جملة من الشبه والأباطيل، وسار على درب المشركين أعداء الإسلام في كل زمان يجددون التلويح بشبههم ويحيون ما اندثر منها ويلبسون حللا تتناسب والعصر.

سمات المستشرقين وطبيعتهم:

ونظرا إلى أن الاستشراق خرج من رحم الكنيسة الحاقدة على الإسلام، فإن سمو "الكنيسة" وخدمة الصليبية كانت أبرز سمات المستشرقين، ثم بظهور النزعة الاستعمارية لدى البلاد الأوربية، التحمت الروح الصليبية مع الأطماع الاستعمارية ونزعة الهيمنة وإذلال الشعوب واغتصاب خيراتها لا سيما البلاد الإسلامية، فكان

المستشرق أفضل أداة لخدمة هذين الغرضين غير النظيفين، وبذلك أصبح المستشرق لا يخلـو مـن أمرين فهو إما صليبي منكر للإسلام ولنبوة محمد، وأغلب هؤلاء من القساوسـة واليهود الذين عرفوا بعداوتهم للإسلام وكيدهم للمسلمين ومحاولاتهم اليائسـة لتشـكيكهم في دينهم وتضليلهم عنه، وإما خادم للاستعمار خبير ملحق بـوزارة خارجية الدولة المستعمرة، حيث نشأت رابطة وثيقة الصلة بين الاستعمار والاستشـراق، يصـور هـذا المعـنى نـص قرار إنشاء "كرسي اللغة العربية في جامعـة"كمـبريدج سنة 1636م، فهو يرمي إلى خدمة غرضين أحدهما تنصيري والآخر استعماري تجاري:

1- تقديم خدمة نافعة إلى الملك والدولة عن طريق تجارتنا مع الأقطار الشرقية.

2- تمجـيد الله بتوسـيع حدود الكنيسة والدعوة إلى الديانة المسيحية بين هؤلاء الذين يعيشون الآن في الظلمات!![4]

وإن قـراءة سريعة لقائمة أعلام الاستشراق تجعل من السهل إدراك الرؤية الكنيسـية للاستشراق.. إذ هم في الأساس من آباء الكنيسة وتلاميذهم[5].كما أن انسـياق العديد من المستشرقين في خدمة الاستعمار وارتضاءهم لأنفسهم أن يكون علمهم وسيلة لإذلال المسلمين وإضعاف الإسلام، جعل بعض المنصفين منهم يشعر بـالخجل والمـرارة بـل ويصف هذا العمل بـ "القبيح" و"بالواقع المؤلم". يقول المستشـرق الألماني المعاصر "ستيفان فيلد Stephan wild": والأقبح من ذلك أنه توجد جماعة يسمون أنفسهم مستشرقين سخروا معلوماتهم عن الإسلام وتاريخه في سـبيل مكافحة الإسلام والمسلمين، وهذا واقع مؤلم لابد أن يعترف به المستشرقون المخلصون لرسالتهم بكل صراحة"[6].

وقائمة الذين ارتبطوا بالاستعمار وألحقوا بالمسلمين النكبات طويلة نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر:

1- المستشرق الهولندي "سنوك هرجرونيه (1857 - 1936) Christian snouk Hurgrene" اشترك في العمليات الجاسوسية والتنصير والاستعمار العسكري والثقافي، فقد تظاهر كذبا بالإسلام وسافر إلى مكة سنة 1885 وظل بها ستة أشهر منتحلا اسم عبد الغفار، ثم انتقل إلى إندونيسيا في مهمة تجسّسية سرّية في إقليم "آجي" الذي ثار ضد الهيمنة الهولندية، وتظاهر هناك بالإسلام، وكان بارعا في تمثيل دور المسلم، فخدع أحد الأمراء وتزوج ابنته، وقد أكرمه المسلمون وعلماؤهم ومنحوه ثقتهم ، فكان أن قابل تلك الثقة و ذلك الكرم بالغدر و الخيانة حيث أوصى الحكومة الهولندية، باتباع سياسة العنف والتصفية لعلمائهم لأنه رأى فيهم العقبة الكأداء أمام خضوع الإقليم للسيطرة الهولندية[7] إذ كانوا المحرك الأول للثورة الإسلامية ضد الهيمنة والتنصير، وما تزال آثار تلك المخططات الجهنمية تتفاعل في إندونيسيا حتى الآن فهي تعاني من مخاطر التقسيم والانفصال والقضاء على وحدتها.

2- المستشرق "دي ساسي" الفرنسي أصبح منذ سنة 1805 يشغل منصب المستشرق المقيم بوزارة الخارجية الفرنسية، وكان في صحبة جيش الغزو الفرنسي للجزائر سنة 1830م وهو الذي ترجم البيان الذي وجه للجزائريين في تلك الحملة الغادرة.

3- كما أن المستشرق الفرنسي "هانوتو" ت 1944م يكشف بوضوح عن مقترحاته لتوجيه سياسة فرنسا في مستعمراتها إلى إضعاف المسلمين في عقيدتهم حتى تسهل قيادتهم.

أبرز سمات البحوث الاستشراقية:

فــإذا كانـــت هذه بعض أهداف الاستشراق فلا غرو إن اتسمت بحوث المستشرقين بالملامح التالية:

1- سوء الظن وسوء الفهم لكل ما يتصل بالإسلام.

2- سوء الظن بالمسلمين وعلمائهم وتصويرهم على أنهم كذابون دجاجلة..

3- تصوير المجتمع المسلم بالمجتمع المتفكك الأناني.

4- إخضاع النصوص لأهوائهم فيتحكمون فيما يقبلونه وما يرفضونه دون احتكام لمنهج علمي أو إلتزام بأصول البحث والأمانة العلمية.

5- تحـــريفهم للنصـــوص في الكـــثير من الأحيان تحريفا معتمدا، فإذا عجزوا عن تحريفهم تعمدوا إساءة فهمها.

6- يتعســـفون في استخدام المصادر، فهم يدرسون السنة من خلال كتب الأدب، والفقـــه مـــن خلال كتب التاريخ، ويصححون ما ينقله الدميري في "الحيوان" ويكذبون ما يرويه مالك في الموطأ، انسياقا مع الهوى وانحرافا عن الحق[10].

لعل هذه التوطئة الموجزة ضرورية لإدراك دراسات المستشرقين حول السنة النـــبوية المصـــدر الثاني للتشريع الإسلامي، وما بذلوه من جهود وارتكبوه من آثام لإبطالهـــا والتشكيك في حقيقتها، ويحسن بنا قبل الشروع في استجلاء موقفهم من السنة أن نعرف مدلول لفظ السنة عندهم:

مدلول مصطلح "السنة" عند المستشرقين:

إذا ما استنطقنا معاجم اللغة العربية عن معنى السنة وجدنا أن الأصل فيها هو "الطريقة" و"السيرة" حسنة كانت أو سيئة، من ذلك قول خالد بن عتبة الهذلي:

فلا تجز عن سيرة أنت سرتها فأول راض سنة من يسيرها[11].

4- وكـــان "لويس ماسينيون Louis Massignon" مستشارا للإدارة الاستعمارية الفرنسية، ومخططا لسياستها ضد مسلمي المغرب العربي، وقد أدت هذه السياسة إلى تشـــجيع التنصير، وإضعاف اللغة العربية وإحلال الفرنسية مكانها، وإثارة النعرات العرقـــية والقبلية بين أبناء الأمة الواحدة كما أدت في النهاية إلى استشهاد أكثر من مليون مسلم في ثورة التحرير المباركة، وما تزال آثار مخططاتهم الجهنمية تعاني منها شعوب المنطقة كلها حتى الآن(8).

أهداف المستشرقين:

مـــن أهـــم الأهداف التي آل الاستشراق على نفسه أن يخدمها بإخلاص وتفان:

1- تبشيع الإسلام في عيون جماهير النصارى الخاضعة لزعامتهم الدينية، فطعنوا في الإســـلام وحـــرفوا حقائقـــه، كمـــا طعـــنوا في المســـلمين ووصفوهم بالهمجية واللصوصـــية... وحـــتى الوثنية!!، فلم يكن من أهدافه الدخول في حوار بناء مع الإســـلام أو محاولـــة اســـتيعاب تعاليمه بقدر ما كانت غاياته تقديم صور كريهة ومشوهة تمكن الكنيسة من الاحتفاظ برعاياها والحيلولة دون دخولهم في الإسلام أو الانجذاب إلى تعاليمه وقيمه(9).

2- تشويه الإسلام في عيون المسلمين لبث الوهن والارتباك في تفكيرهم عن طريق التشـــكيك في قـــيم الإسلام وعقيدته وأصوله وشريعته وحضارته، ليفقدوا الثقة في أنفسهم وليرتموا في أحضان المسيحية، ولإضعاف المقاومة الروحية والمعنوية للهيمنة الاســـتعمارية وقد أعانهم على ذلك انتصاراتهم الاستعمارية، والانهيار والتدلي الذي تعيشه الأمة الإسلامية.

وقـــول الرسولﷺ: "من سن في الإسلام سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها.. ومـــن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها..."[12] بمعنى من اتخذ طريقا ونهج نهجا.

كمـــا قد تكون بمعنى "صب" ومنه حديث ابن عمر: "كان يسن الماء على وجهه ولا يشنه" أي كان يصبه ولا يفرقه.

وإذا أطلقـــت في الشـــرع فيراد بها ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه وندب إليه قولا مما لا ينطق به الكتاب العزيز[13]

أما عند علماء السنة: فهي "ما أثر عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وإقراراته وصفاته الخلقية الحقيقية والحكمية،وحتى حركاته و سكناته في اليقظة وفي المنام"[14]

هذا هو معنى السنة عند اللغويين العرب وعلماء الشريعة كما هو مبسط في مصادرهم الأساسية، وكان من الأمثلة العلمية أن يأخذ المستشرقون بهذه التعريفات للســـنة إلا أنهم آثروا اللف والدوران لاختراع معنى للسنة يستجيب لأهوائهم حتى يبـــنوا عليه استنتاجات وتمحلات لا صلة لها بالواقع، ضاربين بمعاجم اللغة ومصادر علماء الشريعة عرض الحائط:

فهـــذا "قولـــد زيهر Gold ziher" يقول عن السنة: "إنها مصطلح وثني في أصله، اقتبســـه الإســـلام. كما يقول: هي المنهج القديم المأثور الذي بعتاده المرء في المبادلة والأخـــذ والعطاء "وهي قبل الإسلام اتباع عادات الآباء الكفار وأحوالهم "ثم يعوج إلى اســـتنباط نتـــيجة غريبة وهمية مفادها أن السنة من وضع المسلمين، ذلك أنهم اســـتنكفوا من اتباع عادات آبائهم الكفار" فأنشئوا لهم سنة جديدة تتخذ لهم من أخلاق النبي وصحابته مثلا في جميع أحوال معايشهم"[15] متناسيا أن الله تعالى نعى على المشركين تقليد آبائهم واتباع نهجهم بدون تدبر "يقول الله تعالى: { ما أرسلنا

مــــن قـــبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها: إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثـــارهم مقتذون* قل أولو جئتم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم قالوا إنا بما أرسلتم به كافرون} -43 الزخرف 23، 24-

أمـــا الســـنة فهي ما أثر عن النبي ﷺ من أقوال وأفعال وإقرارات وصفات كـــريمة عاشـــها الرســـول والصحابة معه فلم يخترعوها أو يبتدعوها، أما اتباعها والاقـــتداء بهـــا وعدم مخالفتها فبأمر الله لا باختراع المسلمين أو باختيارهم. يقول تعـــالى: {لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا} -33 الأحزاب21- ويقول جل وعلا: {فليحذر الذين يخالفون عن أمره إن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم} -24 النور61-

أما "شاخت Joseph sacht" فيقول عن السنة: "إن النظرية الكلاسيكية للفقه الإسلامي تعرّف السنة بأفعال النبي المثالية" وينسب هذا المعنى للشافعي، إلا أنه يتعقـــبه بقوـــله: "لكن معنى السنة على وجه الدقة إنما هو النظائر السابقة، ومنهج الحـــياة أو هـــي "الأمر العرفي، الأمر المجمع عليه، أو هي تقاليد المجتمع أو الأعراف السائدة"

أما "مارغوليوث Margoliouth" فيرى أن معنى السنة في صدر الإسلام: "هي ما كان عرفا مألوفا " ثم تطور معناها في الفترة المتأخرة فأصبح منحصرا فقط في أفعـــال الـــنبي، ثم ليـــثير التوجس إزاءها حشر السلطة حشرا في هذا التعريف وأعطاهـــا دورا في تحديـــد معـــنى السنة فقال: "هو ما كان عرفا مألوفا وقد أيدته السلطة حتى صار عنصرا مدمجا في شخصية النبي".

ويرى د. مصطفى الأعظمي فيما ادعاه قولد زيهر- من أن السنة مصطلح جاهلي استخدمه الإسلام - تحكما لا دليل له عليه، ثم إن استعمال الجاهلين لكلمة

مـــا لا يحيـــلها إلى مصـــطلح جاهـــلي وثني، وإلا لأصبحت اللغة العربية بكاملها مصـــطلحا جاهلـــيا، وهذا لا يقول به عاقل. أما ما ادعاه "شاخت" وما استنتجه "مارغوليث"فلا مستند لهما فيه سوى الهوى، فهي ادعاءات تخالف مخالفة جذرية ما دلت عليه النصوص القطعية في مصاردها الأصلية[16].

محاولات المستشرقين التشكيك في السنة وأسباب ذلك:

بعـــد أن فشـــلت محاولات المستشرقين المضنية للتشكيك في القرآن الكريم دون أن يظفـــروا بـــأي أثـــر إيجابي لدى المسلمين رغم ما بذلوه من جهود دؤوبة لزعزعة ثقتهم في كتابهم العزيز، تحولوا إلى التشكيك في السنة المصدر الثاني للتشريع مـــع الاســـتمرار في محاولاتهم السابقة الفاشلة الموجهة نحو الطعن في القرآن الكريم. وكـــان لدهاقـــنة الاستعمار الإنجليزي بالخصوص دور متميز في إثارة الشكوك في بعـــض موضـــوعات الســـنة تمهيدا للطعن فيها كلية، وصولا في النهاية إلى إبطال الشريعة.

فقـــد واجـــه الإنجليز عند احتلالهم الهند مقاومة عنيفة من المسلمين الذين أعلنوا الجهاد في وجه الغزو لتخليص بلادهم من الاحتلال، فما كان من الإنجليز إلا أن صنعوا لهم عملاء من المسلمين نادوا بإنكار الجهاد بالسيف مثل المتنبئ الكذاب" مـــيرزا غلام أحمد القادياني (1839 - 1908) الذي طعن في أحاديث الجهاد ثم ما لبـــث أن تطـــورت هذه الحركة الانهزامية العملية إلى المناداة بإنكار الحديث جملة وتفصـــيلا، وقد قاد هذه الحركة "غلام احمد برويز" من خلال تأسيسه جمعية سماها "أهـــل القرآن". هكذا شنت على السنة حرب في مستوى الداخل على يد مسلمين صـــنائع للغاصب، مفتونين بالحضارة الغربية ومنهزمين فكريا ونفسيا، إلا أن الغرب لم يكـــتف بهـــذا، وإنما جهز جحافل من المستشرقين ويسّر لهم الإمكانيات المادية

وســـهل لهـــم طرق البحث وأقام حولهم هالة من القداسة، فأصبحوا روّاد الغزو والهجـــوم على السنة النبوية من الخارج[17]. ذلك أن إلغاء الشريعة لا يتأتى لهم إلا بالتشـــكيك أولا في مصادرها ثم بالطعن في صلوحيتها للحياة. ولا يخفى على أعداء الإســـلام أهمـــية السنة في إقامة شرع الله ودورها في تفسير ما ورد في القرآن من أحكـــام كلـــية عامة ومطلقة فمتى نجحوا في محاربة السنة وإبطالها أمكنهم التلاعب بالقـــرآن إذ "لو لا السنة ما فهم أحد منا القرآن" كما جاء ذلك على لسان الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان[18].

رواد الغارة الاستشراقية على السنة النبوية:

وكـــان أول من تولى هذه الغارة على السنة النبوية وبذل محاولات واسعة للتشـــكيك فـــيها "قولـــد زيهر- Gold Ziher" الذي يعده المستشرقون أعمق العارفين بالحديث النبوي، وكذلك "سناؤك هورجرونيه Snouck Hurgronje" المستشـــرق الهولندي الذي تظاهر بالإسلام خداعا وبهتانا، فقد أشادت بهما دائرة المعارف الإسلامية التي وضعها المستشرقون قائلة: "والعلم مدين دينا كبيرا لما كتبه" قولـــد زيهر" في موضوع الحديث، ولما كتبه "سنوك هرجرونيه"، فهذان العالمان هما اللـــذان بيّنا لأول مرة في وضوح وجلاء صفة الحديث الحقيقية وأهميته التاريخية من هذه الناحية"[19]

ويضـــيف لهمـــا د. مصـــطفى الأعظمي المستشرق الألماني المتعصب ضد الإسلام "شاخت"، ويبرر إضافته هذه بأن الأولين (تحديا ما هو معلوم عند المسلمين بالضـــرورة مـــن منزلة السنة النبوية وأصالة التشريع الإسلامي، إلا أنه لم يكن في وســـعهما أن يأتيا بنظرية متناسقة متجانسة شاملة يعارضان بها عقيدة المسلمين في الســـنة، والـــذي استطاع أن يأتي بهذه النظرية برغم أنها خيالية إلى حد بعيد، هو

جوزيــف شاخت، وقد انصبت نظرياته على أسس الفقه الإسلامي في كتابه "الفقه الإسلامي"، أما أشهر مؤلفاته على الإطلاق فـ "أصول الشريعة المحمدية" الذي نال أعلى درجات الإعجاب في العالم الأكاديمي الغربي"[20]

"قولدزيهر" وأهم طعونه في السنة وشبهه حولها:

إن الـثقة الـتي أولاها الغربيون لدراسات "قولدرزيهر" الحديثية جعلتهم يعتــبرون النتائج التي توصل إليها حاسمة ومرجعا أساسيا لهم[21]. وتبعا لذلك فقد أطلقــوا علــيه أعظم الألقاب والأوصاف، فهو ذو العلم العميق والاطلاع الذي يفوق كل وصف، ويقول عنه الأستاذ الشيخ مصطفى السباعي: "إنه أشدهم خطرا وأوسعهم باعا وأكثرهم خبثا وإفسادا في هذا المساق، فقد كان واسع الاطلاع على المــراجع العربية - على ما يظهر- حتى عد شيخ المستشرقين في الجيل الماضي، وما تــزال كتــبه وبحوثه مرجعا خصبا وهاما لهم في هذا العصر"[22]. وكيف لا يكون أكــثرهم خبثا وإفسادا وهو يروج لمزاعم يهدف من ورائها إلى هدم الأصل الثاني للتشريع الإسلامي وهو السنة المشرفة[23].

فمــا هي هذه النتائج والشبه التي توصل إليها وشايعه عليها أبناء ملته من المستشرقين اليهود وأيده فيها دعاة الصليب من المسيحيين.

1) - **الشبهة الأولى**: "القسم الأعظم من الحديث إنما هو نتيجة لتطور الإسلام الديــني والــتاريخي والاجتماعي في القرنين الأول والثاني، فهو لا يمثل وثيقة لتاريخ الإســلام في عهــده الأول، وإنمــا هو أثر من آثار الجهود التي ظهرت في المجتمع الإســلامي في عصــور المراحل الناضجة لتطور الإسلام" أو هو"آراء اعتنقها بعض أصــحاب النفوذ في القرون الأولى بعد وفاة محمد ونسبت إليه عند ذلك فقط"[24] وهو رأي يشاطره فيه فنسنك - Wensink" ويتبناه أغلب المستشرقين.

ويعلل هذه النتيجة بما يلي:

أ- إن الآراء والمعـــاملات الدينــية الأصيلة التي سادت الرعيل الأول لم تستطع أن تصـــمد أمـــام الـــتغيرات، والتطورات التي حصلت في العهود الموالية، فبدأ العلماء يدخلـــون مـــن الأعمـــال والعقائد ما يتواءم مع الأوضاع الجديدة، ذلك أن حياة المســـلمين وأفكـــارهم تأثـــرت بأمشـــاج من التيارات الدخيلة ممثلة في النصرانية والإســـرائيلية والهلينية وحتى الزرادشتية والبوذية، وللتوفيق بين هذه التطورات وبين الـــتزام المســـلمين بـــأن تكون سنة النبي والسابقين الأولين في الإسلام هي القانون الخلقـــي الوحـــيد لهـــم، لجأ العلماء إلى الوضع، فاستباح الرواة لأنفسهم اختراع أحاديث تتفق وآراء العصر، وجعلوا الرسول يقول ويفعل أمورا مستحسنة جدت في تلـــك العصـــور، وهي مستقاة من أقوال الرسل، والأناجيل المنحولة ومن الآراء الإسرائيلية والعقائد الفلسفية اليونانية وقد لقيت تلك الموضوعات الحظوة عند فريق من المسلمين فنسبت كل هذه الأقوال إلى النبي.

ب- كما أن الخلافات الحادة التي جدت بين المسلمين بعد وفاة النبي حول جملة من الآراء المخـــتلفة دفع كل فرقة من الفرق المتناحرة إلى تأييد منزعها بقول أو فعل أو إقرار للنبي.. ولهذا كثرت الأحاديث الموضوعة المتناقضة أشد التناقض في سنـــــــة النبي[25].

** هـــذه أهم شبهة و أكذب تهمة يفتريها هؤلاء المستشرقون على السنة، وهـــي توحي لقارئها بأن الإسلام ليس تنزيلا من رب العالمين محفوظا في كتاب الله وسنة نبيه وإنما هو من صنع مجموعة من الناس الأفاكين الكذابين شكلته من تباينات هائلة وقوى متناقضة.

والحقيقة التي لا مراء فيها أن الرسول ﷺ لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا بعد أن اكتمل الدين بصريح نص القرآن الكريم {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا} -5 المائدة3- وهي آية تتضمن اكتمال السنة المبينة للكتاب، كما أن صريح الحديث يثبت كمال الدين باكتمال نزول القرآن وإبلاغ السنة. يقول رسول الله ﷺ: "تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنتي"[26] ثم يوصي المسلمين باتباع أوامره واجتناب نواهيه: "ما أمرتكم به فخذوه وما نهيتكم عنه فانتهوا"[27]

فاكتمال الدين وبلوغه أوج النضح تم قبل وفاة النبيﷺ، وليس أدل على اكتماله من اجتماع المسلمين على نهج واحد في العقيدة والعبادات والأخلاق والآداب وأحكام المعاملات في مشارق بلاد الإسلام ومغاربها، رغم تباين بيئاتها. إن هذه الوحدة ما كانت لتتم لولا اكتمال قواعد الدين وترسخها واستقرارها منذ حياة النبي عليه الصلاة والسلام عقيدة وشريعة وعبادة وأخلاقا.

أما إذا كان المراد بالتطور ما واجه المشرعين المسلمين من حوادث ونوازل وجزئيات لم ينص على حكمها القرآن والسنة فإن الاجتهاد نص عليه الكتاب والسنة ويعد أصلا من أصول التشريع وقد اجتهد الفقهاء فقاسوا واستنبطوا أحكاما مستمدة من الكتاب والسنة وهم بذلك لم يخرجوا عن دائرة الإسلام وتعاليمه، ويستشهد الشيخ الأستاذ مصطفى السباعي على اكتمال الشريعة ويسرها ومرونتها بسياسة عمر لإمبراطوريتي فارس والروم بكفاءة واقتدار[28].

2)- **الشبهة الثانية**: إن أحكام الشريعة لم تكن معروفة لجمهور المسلمين في الصدر الأول من الإسلام، فقد كان الجهل بالشريعة وبتاريخ الرسول لاصقا حتى بكبار الأئمة، حتى أن أبا حنيفة النعمان ت 150هـ لم يكن يعرف أيهما وقع

قبل؟: بدر أو أحد؟[29] فكانت الأحاديث الموضوعة تسد هذا الفراغ، وهي موضوعات تفصل القصص والأساطير التي وردت موجزة في القرآن وتتناول آراء ومعتقدات جديدة بل وتتناول حتى أحكام الحلال والحرام والطهارة وأحكام الطعام وآداب السلوك ويوم الحساب والجنة والنار والملائكة والخلق والوحي والأنبياء السابقين، فهي تغطي كل ما يتصل بالعلاقة بين الله والإنسان[30].

** سبق أن بينا أن أحكام الشريعة ثابتة ومحفوظة في الكتاب والسنة ومنذ عهد النبي ﷺ ومن المعلوم من الدين بالضرورة أن مسائل العقيدة والعبادة والحلال والحرام من المسائل التوقيفية التي لا يجوز أخذها إلا من الشارع، وما يردده المستشرقون يفصح عن تجاهلهم أو جهلهم بطبيعة الإسلام وحقائقه، وكان من المفروض أن يبينوا لنا أي حلال وأي حرام وأي معتقدات وضعها المسلمون لتكميل النقص وملء الفراغ الناشئ عن جهلهم بعقيدتهم وشريعتهم!؟، إن هذه الدعاوى هي أقرب إلى البهتان منها إلى أي شيء آخر، وإن المدارس العلمية التي أسسها الصحابة أنفسهم وأفواج العلماء الذين غطوا بلاد الإسلام قاطبة لتنفي تهمة الجهل الذي يزعم هذا المستشرق أنه ران على طبقات المجتمع.

أما ما ألصقه بالإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان من الجهل بأسبقية غزوة بدر أو أحد! فهذا من السخف المردود على قائله فأبو حنيفة من أبرز العلماء الذين فصلوا أحكام الحرب في الإسلام التي تستدعى الإلمام بكل غزوات الرسول وسراياه وبكل الوقائع التي وجدت بين جند الإسلام وأعدائه من المشركين ومن شايعهم وما وقع من أحداث في زمن الفتوح في عهد الخلفاء الراشدين، وفقه الإمام محفوظ ومنشور في كتب تلاميذه كأبي يوسف ومحمد بن الحسن الشيباني، والذي أوقع هذا المستشرق في هذا السخف هو منهجه الفاسد في البحث، فأحكام الحروب

ووقائعها بدل أن يدرسها من مظانها من كتب الفقه وتأريخ الفتوح فإنه درسها من كتاب الحيوان للدميري و هو كتاب نوادر وطرف يوردها للتسلي لا لتقرير قضايا علمـــية، ولا يخفــى مـــا كان بين أبي حنيفة ومنافسيه من عداء فكري كان مادة للأخبار بين خصومه وأنصاره كي يلصقوا به ما يحط من قدره أو يرفع من شأنه إلى عنان السماء.

ويدعى "فنسنك" أنه لا بد أن تمر عدة عقود من الزمن بعد وفاة النبي حتى يتمكن علماء المسلمين من التعبير عن العناصر الجوهرية في الإسلام ويصوغوا كلمة الشـــهادة، ويعددوا الأركان الخمسة للإسلام[31]- يريد بذلك حديث جبريل عن الإســـلام والإيمان والإحسان- ويعلل وضع حديث الشهادتين بقوله: "لم يكن لدى النبي أية صيغة يجب الإتيان بها لمن يدخل في كنف الإسلام، وعندما التقى المسلمون بالمســـيحيين في الشـــام ووجـــدوا عندهم "كلمة" شعروا بالحاجة إلى ما يماثلها، فاســـتخرجوا روح الإسلام في هذين الحديثين"[32]، والملاحظ أن ونسنك لم يهضم أن يكون حديث الشهادتين صادرا عن النبي لاشتماله على عبارة "وأشهد أن محمدا رسول الله"!؟

** إن الشهادتين جزء من التشهد في الصلاة و"ونسك" يعلم هذا جيدا إلا أنـــه بدل أن يرجع إلى الحق ويتخلى عن نظريته الخيالية ويعدّلها بما يتفق مع الواقع الـــذي يعيشه المسلمون، عدّل الصلاة نفسها- كما يقول د. الأعظمي- فادعى أنها لم تصـــل إلى شـــكلها النهائي إلا بعد وفاة النبي، وتغافل عن حقيقة أن القرآن أمر بالصـــلاة عشرات المرات وعن أن أحاديث الصلاة تصل الآلاف، فهل يجوز القول بـــأن النبي لم يعلّم المسلمين الصلاة التي هي تعبدية، توقيفية وعمود الدين، و تركها

ناقصة لتكتمل بعد عقود من الزمن على أيدي الصحابة ومن جاء بعدهم؟! لا يقول هذا إلا مكابر معتز بالإثم وجاهل لأبسط قواعد الإسلام.

** أما حديث جبريل فيبرر ونسك وضعه بأمرين:

الأول: أن الـتفرقة بـين الإسـلام والإيمان تطرح في الحديث لأول مرة في تاريخ العقـيدة الإسلامية، لأن القرآن-في زعمه- لم يفرق بين الإيمان والإسلام، ومن ثم فلا بد أن يكون الحديث موضوعا لتكملة هذا النص-المزعوم- في القرآن!؟ ويعلق د. أحمد غراب عن رجل يدعى البحث عن الحقيقة!؟ ذلك أن أفكاره وتعليلاته تثير الضحك والإشفاق لأنه يجهل أو يتجاهل حقيقة ناصعة يعرفها كل من درس كتاب الله وتلا قوله تعالى: {قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا} -49 الحجـرات14- وقـد بين المفسرون معنى الإيمان والإسلام فقالوا: إذا افترقنا وإذا افترقـنا التقينا وترادفا، فيقول ابن كثير: "وقد استفيد أن الإيمان أخص من الإسلام فالإسـلام يطلق على الأعمال الظاهرة والإيمان تصديق القلب بالله ورسله بلا شك ولا ارتياب".

الثانـي: أن الحديـث لا يذكر الجهاد الأمر الذي يدل على أنه وضع بعد مرحلة الفتوحات الإسلامية، حين فقد الجهاد أهميته "ويدحر د. أحمد غراب هذه الأخلوقة بقولـه ساخرا:"هل هي معنى ذلك أن الحديث وضع بعد فتح القسطنطينية في القرن التاسـع لـلهجرة [1453م] مـثلا!؟ ألا يعلم أن الجهاد ذكر في عشرات الآيات القرآنية وأنه فريضة ماضية إلى يوم القيامة، وأن هناك عشرات الأحاديث في الجهاد في كتب الرواية، بل من العلماء من محض الجهاد تآليف خاصة، ككتاب عبد الله بن المبارك العالم المجاهد في "الجهاد".

3)- **الشبهة الثالثة**: "السنة عبارة عن جملة من الموضوعات التي اختلقت بعد وفاة النبي بزمن طويل، ودليل قولدزيهر على هذه الشبهة الخيالية:

أ- أن الخصومة التي حدثت بين الأمويين والعلماء الأتقياء"! خاصة علماء المدينة، حدت بهؤلاء إلى جمع الحديث للرد على الأمويين والطعن فيهم، فلما لم يسعفهم ما جمعوه منه لجأوا إلى الاختراع والوضع لتحقيق أهدافهم، فاخترعوا أحاديث رأوها مرغوبا فيها في ذلك العصر، وفي الوقت نفسه لا تتنافى والروح الإسلامية. وقد برزوا هذا الوضع وهذا الاختلاق أمام ضمائرهم بأنهم إنما يفعلون ذلك في سبيل محاربة الطغيان والبعد عن سنن الدين[33]، وكان هؤلاء العلماء يأملون في استيلاء آل البيت - أعداء الأسرة الأموية- على السلطة، فوضعوا الأحاديث مدحتك دعما لهم وتخذيلا للأمويين وطعنا فيهم بطريقة غير مباشرة.

** والذي نلاحظه أن عبارة "علماء أتقياء" عبارة موهمة غير صحيحة إذ أن الخصومة السياسية التي خاضها الأمويون إنما كانت مع الروافض والخوارج، فإطلاق صفة العلماء على الروافض مثلا، الذين كانوا أداة فساد وإفساد حيث تظاهروا بحب علي وغالوا فيه حتى ألهوه كيدا للإسلام والمسلمين،إطلاق باطل[34]، أما زعمه أن العلماء الأتقياء لما لم يسعفهم ما جمعوه من الحديث لجأوا إلى الوضع والاختراع فهو "قول من لم يصل ولن يصل إلى مدى.السمو الذي كان يتصف به علماؤنا الإثبات "الذين كانوا يترفعون عن الكذب في صغائر الأمور في حياتهم العادية، وكانوا يعدون الكذب من أكبر الكبائر حتى أن منهم من قال بتكفير الكذاب على رسول الله ﷺ وذهب علماء الجرح والتعديل إلى عدم قبول توبته[35].

إن هذا المستشرق-كما يقول الشيخ السباعي رحمه الله- "معذور إذا لم يفهم هذه الخصائص في علمائنا، لأنه لا يجد لها ظلا في نفسه ولا فيما حوله، ومن

اعـــتاد الكذب ظن في النّاس أنهم أكذب منه"[36]، ثم إذا كان علماء المدينة يضعون الحديث فأين هم بقية علماء الأمصار الذين تعزّ بهم مكة والبصرة والكوفية والشام ومصـــر والـــيمن وإفريقية !؟ هل شاركوهم في الوضع ؟ وإذا فعلوا ذلك فأين هي موضوعاتهم؟ وإذا لم يشاركوهم فكيف سكتوا عنهم؟ وأين هو إنكارهم؟ فالمسألة باطلـــة مـــن أساســـها، والذي يذكره العلماء أن حديث علماء الشيخ السباعي – يعـــترف لعـــلماء المدينة بصحة الحديث بدليل أنه أشار على الزهري أن يأتي دور الأنصار فيتعلم منهم.

و"Gold Ziher" يتخذ من جفاء سعيد بن المسبب لعبد الملك بن مروان ذريعـــة وتكـــأة لـــرمي عـــلماء المدينة بعداوة الأمويين وبالتالي بالكذب والموضع لمحاربتهم! إلا أنه لم يستطع أن يستظهر ولو بسبب واه لرميه بالوضع، ذلك أن ابن المســـبب يعد من كبار العلماء الأحرار الذين وهبوا حياتهم للدفاع عن سنة رسول الله ﷺ والوقـــوف ضد من يخالف كائنا من كان، لأنّ نفسه أهون عليه في ذات الله من نفس ذباب.

فحيـــنما أراد عبد المالك بن مروان أن يأخذ من الناس بيعة لابنه الوليد ثم لابـــنه ســـليمان أبي سعيد ذلك لأن النبي ﷺ نهى عن بيعتين في وقت واحد. وقد تعرض بسبب هذا الموقف الشريف للتنكيل والاضطهاد[37]. فهل يستبيح لنفسه بعد ذلك الكذب على رسول الله ﷺ !؟

أمـــا الجفاء بين الحجاج بن يوسف وبعض العلماء فبسبب تجبّره وإسرافه في مقاومة خصـــوم الدولـــة وما اقترفه في حقهم من ظلم وسفك لدمائهم لا بسبب إمعان في الفســـق والضـــلال. ولا ننسى ما كان للحجاج من تعظيم للقرآن وعناية به، فهو الذي كان له فضل السبق في إعجام حروفه وشكل كلماته.

أمـــا ما زعمه من وضع العلماء الأحاديث في مناقب آل البيت فإن أحاديث كثيرة صـــحيحة بل وآيات عديدة تحدثت عن مناقب الصحابة بما فيهم آل البيت، إلا أن الشـــيعة الرافضة تزيدوا في الوضع باعتراف ابن أبي الحديد الشيعي نفسه، فقاومهم أهـــل السـنة وردوا أكاذيـــبهم، فالعلماء لم يضعوا وإنما قاوموا الوضع وكشفوا الموضوعات للنّاس كي يتجنبوها.

ب- "إن الحكومـــة الأمويـــة كانـــت تقابل كذب العلماء بوضع أحاديث تدعم سياســـتها وتـــرد على خصومها، وكان همها منصرفا إلى تأييد تلك السياسة بغض النظر عن صحة الحديث أو ضعفه".

** والحقـــيقة التي لا مراء فيها أن التاريخ لم يرو شيئا من هذه الموضوعات المزعومة وإلا فأين هي موضوعاتهم؟،

إن النص الذي أورده "قولدزهير" على لسان معاوية يحرض فيه عامله على الكوفـــة الصـــغيرة بن شعبة ت 50هـــ على سب علي عليه السلام، بوصف بليغ بكـــى معاوية وقال: رحم الله أبا الحسن فقد كان كذلك[38]. في حين يتهم الشيخ الســـباعي "قولدزهـــير" بتحريف النص الذي أورده الطبري الذي يدعو فيه معاوية عاملـــه إلى شـــتم علي والعيب على أصحابه والإقصاء لهم، فغير عبارة الإفضاء لهم وجعلها "وتصطهد من حديثهم" ليستخلص منها دعوة معاوية للوضع[39].

جـــــ- كما يزعم هذا المستشرق أن عبد المالك بن مروان الخلفية الأموي الخـــامس [65 –68] مـــنع الـــناس من الحج أيام فتنة عبد الله بن الزبير،وبني قبة الصخرة في المسجد الأقصى، وحمل الناس على الحج إليها، وقد طوع صديقه الإمام الزهـــري كي يضع له حديث: "لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: مسجدي هذا، والمســـجد الحرام، والمسجد الأقصى، وحديث: "الصلاة في المسجد الأقصى تعدل

ألـــف صــــلاة فيما سواه ليجوّز بها الحج إلى الكعبة . وحتى يحمل Gold Ziher الإمـــام الزهري وزر وضع هذين الحديثين بزعمه، ادعى "أن أحاديث فضائل بين المقدس لم يرو إلا من طريقه"[40].

** إن بناء محج جديد ليس بالأمر الهين فهو كفر، وإذا وقع هذا فإن أعداء عـــبد المالك وأعداء الدولة سيستغلونه للتشهير بالأمويين، إلا أن الثابت تاريخيا أن خصومهم شنعوا عليهم أشياء كثيرة إلا أن هذا الأمر لن يرد له ذكر في التاريخ.

أما دعوى التقاء عبد المالك الزهري ووضعه الحديثين المذكورين فهي دعوى باطلة للأسباب التالية:

- أن الزهـــري مولود ما بين 50- 58 هـــ و لم يلتق عبد المالك إلا في حدود سنة 81هـــ أي بعد القضاء على ابن الزبير سنة 73 هـــ وخضوع مكة للسلطة الأموية، فما الداعي لأن يضع الزهري له هذين الحديثين؟؟

- أما دعواه أن الحديثين لم يرويا إلا من طريق الزهري فهذا أيضا باطل من أساسه فقـــد روي الحديث من عدة طرق، الزهري وغيره: فقد رواه مسلم[41] من طريق عمـــران بن أبي أنس عن سلمان الأغر عن أبي هريرة. كما رواه عن عبد المالك بن عمـــير عن قزعة عن أبي سعيد الخدري[42]. ورواه أحمد بسنده إلى محمد بن سيرين عن أبي سلمة بن عبد الرحمان عن أبي هريرة[43]. ثم إن الزهري روي هذا الحديث عن شيخه سعيد بن المسيب الذي توفي رحمه الله سنة93 هـــ بعد عبد اله بن الزبير بعشـــرين سنة وهي فترة طويلة كي ينتشر فيها الحديث ويسمع به سعيد الذي لم يســـكت عـــن الزهـــري إذا تزيد عليه، وكان جبلا في الحق لا تأخذه في الله لومة لائم[44].

د- كمــا يــزعم Gold Ziher أن الأمويين يستخدمون الخديعة والدهاء لتطويع الإمــام الزهري في خدمة وجهتهم السياسية، فهذا الوليد بن إبراهيم الأموي يقدّم صحيفة تضم عدد من الأحاديث إلى الإمام الزهري ويطلب إليه أن يأذن له بروايتها عــنه، فما كان من الإمام الزهري إلا أن أجابه: "من يستطيع أن يخبرك بها غيري؟" فالزهــري- على حد استنباط قولدزهير-س متعاون جدا مع السلطة الأمويةس ولا يرد لها رغبة سياسية!!.

** لقد ثبت أن الوليد بن إبراهيم الأموي ممن سمع من الزهري، إلا أنه غير مذكــور في كتــب الرجال لا جرحا ولا تعديلا، كما أن أحاديثه لا وجود لها في كتــب الســنة المتعارفة، فدعوى نشرها على الناس من الباطل الصريح، أما مسألة عرضــه صــحيفة على الزهري وإجازة الزهري له أن يرويها عنه فيه ما يدعو إلى التوقف، فهذا أمر معروف عند العلماء بعرض المناولة وهي طريقة من طرق الرواية المعتمدة عند العلماء، إلى أن "قولدزهير" يسعى دائما للصيد في الماء العكر[45].

هــ- وليهدم "قولدزهير" ركنا من أركان السنة وهو الإمام الزهري صوره على أن فيه قابلية العمالية للسلطة الأموية:

- فهــو يــرى مشروعية العمل معها، ولا يتجنب التردد على القصر والتحرك في حاشــية الســلطان، ب فقــد حج في حاشية الحجاج المشهور بغلظته في مقاومة خصوم الدولة.

- كمــا قــبل منصب القضاء للخليفة الأموي التاسع يزيد الثاني بن عبد المالك بن مــروان [101 - 105]، وقــبل أن يكون مربيا لولى عهد هشام بن عبد المالك الخليفة الأموي العاشر [105- 125].

وحتى يشوه هذا المستشرق اليهودي صورة الإمام الزهري أجرى مقارنة بينه وبين الشعبي عامر بن شراحيل ت104 هـ فذكر أن الشعبي حارب الحجاج مع ابن الأشعث فيما يعرف بهيج الجماجم [80- 82هـ][46] ، وامتنع عن تولي القضاء لأن من تولى القضاء ذبح بغير سكين، ويختم المقارنة بين هذين العالمين الجليلين بتعليق متحامل مكشوف: "لو كان الزهري تقيا لهرب كما فعل الشعبي!"[47]

** لقد اجمع كتاب التراجم على أن الإمام الزهري كان مثالا للأمانة والثقة وجلالة القدر وعزة النفس وسعة العلم، حتى قال الشافعي: "لولا الزهري لذهبت السنن" وقال أحمد بن حنبل وإسحاق بن راويه: "أصح الأسانيد مطلقا: الزهري عن سالم عن عبد الله بن عمر"[48] فصلته بالخلافة كانت صلة الواثق بدينه المعتز بعلمه فلا يقبل أن تحرف الحقائق أو تمتهن القيم. ثم إذا كان الزهري ممالئا للسلطان على حساب الدين لشنع به النقاد-على الأقل في العهد العباسي- على افتراض أنهم كانوا يخالفون سطوة الأمويين في العهد الأموي، لكن شيئا من هذا لم يحدث.!

- أما دعواه أنه حج في حاشية الحجاج فهي محض افتراء، لأنه كان مع ابن عمر ت 73هـ وكان عبد المالك قد أمر الحجاج بالإئتناء بابن عمر في المناسك،فكان لزاما أن يلتقيا.

- أما ما عابه به أنه تولى القضاء ليزيد الثاني بن عبد المالك [101-105هـ] وما زعمه من أنه لو كان تقيا لهرب كما هرب الشعبي ت 104 هـ فهذا من التحامل الظالم لأن تولى القضاء لا يضير العلماء ولا يدخل بعدالتهم.ثم إن"Gold Ziher" بغلط باخفائه بعض الحقائق، فالشعبي نفسه بعد أن حارب الحجاج و معه ابن

الأشـعث وخمدت الفتنة سنة 82هـ تولى القضاء ليزيد الثاني بن عبد المالك نفسه [101-105] الذي تولى له الزهري القضاء، فلماذا تجاهل الأمرين من الشعبي وهو الأولى بالذكر!![49]

و- ويـزعم أيضا أن السلطة الأموية لم تقتصر على وضع أحاديث تخدم أغراضها السياسـية ومصالح البيت الأموي، وإنما تجاوزها إلى وضع أحاديث في العبادات لا تتفق مع ما يراه علماء المدينة، مما أسهم في تغيير الحياة الدينية:

أ- فلصـلاة الجمعة خطبتان، وكان الخلفاء يخطبون وقوفا، فأصبح الخليفة الأموي يخطب الخطبة الثانية جالسا مستدلين بما رواه التابعي الشامي الجليل رجاء بن حيوة [ت 112هـ] من أن الرسول والخلفاء كانوا يخطبون جلوسا.

ب- وخطبتا العيد بعد الصلاة فغير الأمويين ذلك وقدموهما على الصلاة.!

ج- واتخذ معاوية مقصورة في المسجد، وقد أزالها العباسيون بعد ذلك.!

د- كما أنه زاد في عدد درجات المنبر[50]!

** إن ما زعمه Gold Ziher من تغيير الأمويين للحياة الدينية ووضعهم أحاديـث تؤيـد هذا التغيير، من الدعاوى الباطلة التي لا تستند إلى دليل، فما فعله بعـض الخلفاء الأموين مما استشهد به قولدزهير لم يكن بناء على أحاديث وضعوها أو وضعت لهم، وإنما عن عذر قضى عليهم بذلك أو عن اجتهاد منهم سواء كانوا مخطئين أو مصيبين:

أ- فعن الشعبي عامر بن شراحيل ت 104هـ "أول من خطب الناس قاعدا معاوية بن أبي سفيان حينس كثر شحمه وعظم بطنه." وقد أنطر الصحابي الجليل"كعب بن عجرة السلمي ت 52 هـ"على عبد الرحمان بن الحكم خطبته قاعدا، قائلا له أمام الناس: "انظروا إلى هذا الخبيث يخطب قاعدا والله تعالى يقول:،{ إذا رأوا تجارة أو

لهوا انفضوا إليها وتركوك قائما} - 62 الجمعة 11- ولم يحتج ابن الحكم بحديث يؤيـــد جلوسه. أما ما نسبه المستشرقون لرجاء بن حيوة من أن النبي والخلفاء كانوا يخطـــبون قعـــودا فدعوى كاذبة، فلا أثر لهذا الحديث في كتب الرواية ولا حتى في كتب الموضوعات.

ب- أما تقديم خطبتي العيد على الصلاة من مروان بن الحكم، فاعترض عليه رجل من المصلين، وأيد أبو سعيد الخدري هذا المعترض، فقال مروان -معترفا بأن الأصل فيهما التأخر عن الصلاة- إنما قدمناهما لألا ينصرف الناس عن سماعهما"[51].

ج- وذكـــر ابـــن خلدون في المقدمة [صفحة 476] أن أول من اتخذ مقصورة في المســـجد معاوية حين طعنه أحد الخوارج، اتخذها وقاية من خطر التآمر والاغتيال وقيل أول من اتخذها مروان بن الحكم حين طعنه اليماني.

د- أمـــا زيـــادة معاوية في درجات المنبر، فما الضير في ذلك وقد زاد المسلمون في درجـــات منـــبر رسول اللهﷺ لما كثر عدد المسلمين في حياته عليه الصلاة والسلام وبعد مماته.

هـــ- وممـــا زعمـــه "قولدزهير": أن الأمويين عملوا على نشر أحاديث ميولهم السياســـية وعلى توهين أخرى تعارض توجههم، وقد تولى العباسيون إعدام الكثير من تلك الأحاديث التي تخدم المصالح الأموية[52].

** إن التنافس السياسي قد يؤدي إلى مثل هذا الأمر إلا أن هذا لا صلة له بعـــلماء الســـنة ورواة الحديث الموثوقين، ثم إن الموضوعات مرصودة مع رواتها في كتب الموضوعات فأين هي هذه الأحاديث؟ وكيف اختلفت؟ إنه مجرد افتراء[53].

و- وممـــا يستشهد به قولدزهير على وجود الوضع في القرنين الأول والثاني اعترف علماء الجرح والتعديل بكذب الصالحين وكثرة المدلسين:

- فهذا يحي بن سعيد القطان ت 198 هـ يقول: "ما رأيت الكذب في أحد أكثر منه فيمن ينسب إلى الخير"[54]، وهذا أبو عاصم النيل الضحاك بن مخلد ت 212 هـ يقول: "ما رأيت الصالح يكذب في شيء اكثر من الحديث". كما يستدل بنص لوكيع بن الجراح [129 – 197 هـ] يقول فيه عن زياد بن عبد الله البكائي ت 183 هـ: "هو أشرف من أن يكذب" ويحرف قولدزهير هذه المقولة لتتساوق مع هواه فتصبح عنده: "إنه مع شرفه، في الحديث كان كذوبا!!" وهذا إما جهل منه في فهم العبارة وإما أنه تعمد التحريف وفي كليهما تجن على الحقيقة وهي أن زيادا البكائي من ثقات الرواة ناهيك به أنه من رجال البخاري"[55] ومسلم والترميذي وابن ماجه.

أما كثرة التدليس والمدلسين فيستدل عليه بما قاله الإمام القدوة يزيد بن هارون السلمى الواسطى ت 206 هـ: "إن أهل الحديث بالكوفة في عصره ما عدا واحدا كانوا مدلسين حتى السفيانان"[56]

** إن العلماء الصالحين هم عمدة الرواية أما الجهلة من الزهاد، فقد كشف العلماء عوارهم حتى لا ينخدع بهم الناس، ولا صلة لأكاذيبهم التي رصدت في كتب الموضوعات بالسنة المطهرة. أما التدليس فليس كذبا كما هو معروف عند العلماء إنما هو إبهام بالسماع، وقد درس التدليس فليس كذبا كما هو معروف عند العلماء إنما هو إيهام بالسماع، وقد درس العلماء التدليس وبينوا أنواعه، وحكموا على رواه المدلسون بلفظ محتمل بالانقطاع، وما رووه بلفظ يثبت السماع بالإتصال. وقد اعتنى العلماء بالمدلسين وضبطوا أسماءهم وتراجمهم وحددوا البلاد التي وجدوا فيها. يقول فارس الحاكم: "أهل الحجاز والحرمين ومصر والعوالي وخرسان والجبال وأصفهان وبلاد فارس وخوزستان وما وراء النهر لا يعلم أحد

مـــن أئمـــتهم ذلّـــك، وأكـــثر المحدثـــين تدليسا أهل الكوفة ونفر يسير من أهل البصـــرة."[57] ، كما أن أهل الحديث قبلوا أحاديث سفيان بن عيئة مطلقا لأنه قد عـــرف عندهم أنه لا يدلس إلا عن ثقات، لذلك يقول ابن حبان: "هذا شيء ليس في الدنـــيا إلا لســـفيان بن عينة، فإنه كان يدلس ولا يدلس إلا عن ثقة متقن، ولا يكاد يوجد لابن عينة خبر دلس فيه إلا وقد بين سماعه عن ثقة مثل ثقته."[58]

فمـــا يدعـــيه قولدزهير لا يخرج عن دائرة الكذب والتشهير بعلماء الأمة الأخبار.

4)- الشبهة الرابعة التي اختلقها قولدزهير: أن النقد في القرن الثاني أصـــبح شكليا، فصحة الحديث لا تخضع لقواعد النقد وضوابطه العلمية، وإنما تنقد نقـــدا شكليا، استنادا إلى ما نسب إلى الرسول ﷺ من قوله:"سيكثر التحديث عني فمـــن حدثكـــم بحديـــث فاعرضوه على كتاب الله فما وافقه فهو مني قلته أو لم أقله"[59] ويستدل على فريته هذه المتعلقة بشكلية النقد: "بالحكم بالوضع على كثير من الأحاديث التي صحت أسانيدها."[60]

** وهذا منه تجن على الحق. فإن قواعد الجرح والتعديل ودراسة الأسانيد ومعـــرفة المتابعات وقواعد دراسة المتون ومعرفة شواهدها يشهد بدقة منهج علماء الحديـــث في الـــنقد والتمحيص وصرامته، وهذه القواعد اكتملت في القرن الثاني وألـــتزمها العـــلماء إلى يوم الناس هذا. أما الحديث الذي استشهد به فهو حديث موضوع باطل بإجماع أئمة الحديث وضعه الزنادقة لترويج الأحاديث الموضوعة على رسول الله ﷺ عند العوامة والجهلة[61].

أما دعواه "الحكم بالوضع على أحاديث صحت أسانيدها" فهذا من التمويه المردود، ولا يجوز قوله في حق العلماء الذين هم قمة في التحري واليقظة، فلم يرج

علـــيهم مـــا كان يفعله بعض أهل الزيغ والجهل من تركيب أحاديث مختلفة على أسانيد مقبولة[62].

5)- **الشبهة الخامسة**: منهج النقد عند المسلمين غير منضبط:

يقـــول "جوينـــبول Juynboll": "والحكم على قيمة المحدث قد تختلف اخـــتلافا بيننا فربما كان ثقة عند قوم ولكن غيرهم يعدونه في منتهى الضعف وربما اعتـــبروه كاذبـــا في روايته.. بل إن الثقة ببعض كبار الصحابة لم تكن من الأمور المســـلمة عند الجميع في أول الأمر، ولهذا نجد أن الثقة بأبي هريرة كانت محل جدل عنيف بين كثير من الناس"[63].

وهـــذا كلام غير دقيق وليس علميا على الإطلاق، نعم قد تختلف أنظار علماء الجرح والتعديل في الراوي الواحد لأن أحوال المحدثين في الجرح والتعديل مما تدرك بالاجتهاد وتعلم بضرب من النظر كما يقول أبو الوليد الباجي[64]، لكن لا يختلفون حول كذاب وضاع أو ثقة مأمون إذ لا يجتمعون على ضلالة أبدا، وإنما قد يختلفون حول نسبة الثقة في راو من الرواة لأن مدار الثقة يقوم على العدالة والضبط وهمـــا مـــن المقولات بالتشكيك، ولم يستطع كاتب مادة "الحديث" في الموسوعة الاستشـــراقية الإتـــيان بدليل يدعم رأيه الذي يرمي من وراء إشاعته إلى هدم علم الجرح والتعديل.

أمـــا مـــا ادعـــاه مـــن "أن الثقة ببعض كبار الصحابة لم تكن من الأمور المسلمة"؟ فهذه دعوى باطلة أيضا لأن سلف الأمة وجماهير الخلف قد أجمعوا على عدالـــة الصحابة، بما فيهم من لابس الفتن، وصار استنقاصهم آية من آيات الزندقة والمـــروق عن الإسلام، يقول أبو زرعة الرازي: "إذا رأيت الرجل يتنقص أحدا من أصحاب رسول الله ﷺ فاعلم أنه زنديق"[65].

أما ما أوخذ به أبو هريرة من كثرة الرواية فلا يعد طعنا في عدالته، قال ابن عمـــر: " أكثر أبو هريرة، فقيل له: هل تنكر شيئا مما يقول؟ قال: لا، ولكن جرؤ وجنا"

والمعلـــوم أن الرســـول ﷺ قد دعا له بالحفاظ وكان رضي الله عنه ملازما للرســـول مـــنذ إســـلامه خـــبير الســـنة 7هــ حتى وفاته عليه الصلاة والسلام ســـنة 11هـــ، وسنبين تعديل علماء الأمة وخلفا لأبي هريرة عند دحضنا للشبهة السابعة.

6)- ومـــن الشبه كذلك زعمهم أن الوضع لم يقتصر على الروايات الشفوية، وإنما تجاوزه إلى وضع صحف مكتوبة، ويستند قولدزهير Gold Ziher في شبهته هذه عـــلى قبول الناس لوثيقة تعود إلى عصر "تبع بن معد يكرب"، تضمنت حلفا بين اليمينـــية وربيعة، ويعلق على هذا بقوله: فمن مثل هذه الوثيقة لا يعسر غليه قبول صـــحف ورسائل أقرب عهد مثل الصحف المكتوبة حول الصدقة التي أرسل بها الـــنبي ﷺ إلى معاذ بن جبل وعمرو بن حزم وغيرهما، ذلك أن أحاديث صدقة البقر في زعم قولدزهير لم يصح منها شيء، فاللجوء إلى وضع هذه الصحف بكل جرأة، ويصف هذه الصحف المنسوخة منه ولا يبحثون عن صحتها"[66]

** الـــذي لا يختلف حوله اثنان هو أن علماء الحديث لا يصححون حديثا شفويا ولا نصا مكتوبا إلا بعد دراسته وتمحيصه وقد اكتشفوا العديد من الصحف المـــزيفة كصـــحيفة أسلاف قولدزيهر المشهورة بصحيفة اليهود الخيارة التي فضح عوارهـــا الخطيـــب البغدادي[67]. أما كتب الصدقة فقد أجمع العلماء على صحة كـــتاب أبي بكر إلى أنس، وكتاب الصدقة الذي كتبه الرسول ﷺ، ولم يخرجه حتى قـــبض فعمل به أبو بكر حتى قبض وعمل به عمر حتى قبض[68]. وككتابه ﷺ إلى

عمـــرو بن حزم، يقول الحاكم النيسابوري حول ثبوت الكتابة في عهد الرسولﷺ: "لو لم يكن في هذا الباب إلا وقوع العلم بما كان رسول الله يكتبه من عهود السعادة عـــلى الصـــدقات وكـــتابه لعمرو بن حازم لما بعثه إلى اليمن، فإن فيه الأسوة وبه القـــدوة"[69] ويعلق الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رحمه الله على هذه الدعوى بقوـــله: "الحـــق إن هذا المستشرق من أقل الناس حياء في مجال العلم، فهو يخترع الأكذوبـــة ويتخيلها ويركب لها في نفسه هيكلا، ثم يلتقط من هنا وهناك ما يوهم أنـــه يؤيده.. ولا يبالي أن يكذب في النصوص أو يغالط في الفهم أو يستدل بدليل ويعرض عما يكون دليلا قاطعا إذ يبطل فكرته[70]

7)- **الشبهة السابعة**: الطعـــن في أبي هريرة ت 57هـــ ونسبته إلى الكذب والوضع: يصف قولدزيهر أبا هريرة بأنه مختلق مسرف في الأخلاق، وأنه كان يفعل ذلـــك بدواعـــي الورع[71] ويحذو "شبرنجر" حذوه حتى كاد يستعير نفس عبارته فيصـــف أبا هريرة بأنه متطرف في الأخلاق ورعا[72] وليدلل على وجاهة ما ذهب إلـــيه، زعم أن الذين تلقوا عن أبي هريرة أنفسهم قد شكوا فيما ينقله، وعبروا عن هـــذا الشك بأسلوب ساخر، ويمثل لذلك بحديث أبي هريرة "أن رسول الله ﷺ أمر بقتل الكلاب إلا كلب صيد أو كلب غنم أو ماشية.. فقيل لابن.عمر إن أبا هريرة يقـــول: أو كلـــب زرع. فقال ابن عمر: "إن لأبي هريرة زرعا". ويجعل قولدزيهر Gold ziher من تعليق ابن عمر: "إشارة إلى ما يفعله المحدّث لغرض في نفسه"، ثم يميل على الإمام مسلم بالطعن لروايته هذا الحديث[73]

أمـّا دائرة المعارف الإسلامية فتذرف أحرّ الدّمع وتأسف شديد الأسف إذ لم يعد في القرنين الثاني والثالث للهجرة "في الإمكان اعتبار رجل كأبي هريرة الذي يـــرجع إليه الفضل في تداول هذه الأحاديث من الكذابين، بل سلم على وجه عام

بصـــحة كـــثير من الأحاديث التي تتضمن أخطاء تاريخية شديدة الوضوح ."[74] ، وهـــي عـــبارة توحـــي لقارئها وكأنه كان قبل ذلك من الممكن تجريح أبي هريرة الصحابي الجليل وتكذيبه.

** يقـــول الشـــيخ العلامة محمد عزفة: "أبو هريرة رضي الله عنه من جلة الصـــحابة ومـــن أوسعهم رواية بل هو أوسعهم رواية إلا ما كان من ابن عمرو، وتجريح هذا البحر فيه إفساد كبير، ولو كان لطعن هؤلاء الأدعياء وجه من الصحة لاحـــتمل ولكنه طعن باطل لا حق فيه، وقد روى عنه اكثر من ثمانمائة راو مما يدل عـــلى ثقـــتهم فيه.. ثم حتى وإن شكوا فيه فإن تركهم له يحدّث قرابة خمسين عاما دليل على رضاهم عنه وثقتهم فيه، وهم الغيارى على سنة رسول الله ﷺ.. وهو ثقة ثبـــت عند الصحابة وعند علماء الحديث. قال ابن عمر ت 73 هـــ: "أبو هريرة خير مني وأعلم بما يحدث" وقال طلحة بن عبيد الله ت 36 هـــ: "والله لا نشك أن أبـــا هريرة سمع من رسول الله ﷺ ما لم نسمع وعلم ما لم نعلم"[75] وهذا زيد بن ثابـــت ت 45 هـــــ يسأله رجل عن شيء فيحيله إلى أبي هريرة بحر العلم وكان حافظة بدعاء رسول الله ﷺ. يقول الشافعي: أبو هريرة أحفظ من روى الحديث في دهـــره". وقـــال أبو صالح ذكوان السمان الزيات ت 101هـــ: "أبو هريرة أحفظ أصـــحاب محمد ﷺ". وهذا عمر بن الخطاب يأذن له بالتحديث بعد أن ذكره بما سمعاه معا من رسول الله ﷺ في أحد بيوت الصحابة: "من كذب عليّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النّار"[76]. بل فقد أقره على رواية الحديث عثمان وعليّ وطلحة والزبير وزيـــد بـــن ثابت و أبو أيوب الأنصاري وابن عباس وعائشة وجابر بن عبد الله ، وعـــبد الله بـــن عمر وأبي بن كعب وأبو موسى الأشعري، وهذا إجماع منهم على

صـــدقه وأمانته، وإذا عدله الله ورسوله وكرام الصحابة فلا عبرة بتجريح أصحاب الأهواء وخصوم الإسلام من المستشرقين:

إذا رضيت عني كرام عشيرتي فلا زال غضبانا على لئامها

"فشـــبرنجر" وقـــبله "قولدزيهر" هما المتطرفان في الاختلاق على أصحاب رسول الله ﷺ تضليلا للمسلمين وتشويشا على الدين وإيذاء للحقيقة وسترا للواقع، فهي دعاوى باطلة ليس لها مستند:

والدعاوى ما لم تقيموا عليها بينات أبناؤها أدعياء(77)

** أما دعواهم أن أبا هريرة زاد في الحديث "أو كلب زرع" لمصلحته بناء على ما فهموه من قول ابن عمر رضي الله عنهما، فمن الخطأ البين وذلك لما يلي:

- قـــول ابن عمر، إنما هو تثبيت منه لأبي هريرة فيما قال لا تكذيب له، بدلـــيل أنـــه هـــو نفسه رواه بتلك الزيادة "المزعومة"، [مسلم 1202/3 حديث رقـــم 56، رقـــم 61 (1576)] قال الإمام النووي: "ليس قول ابن عمر إن لأبي هريـــرة زرعا توهينا لرواية أبي هريرة ولا شكا فيها، بل معناه أنه لما كان صاحب زرع وحرث اعتنى بذلك وحفظه وأتقنه". [انظر صحيح مسلم 3/ 1203 هامش عدد 1].

- كمـــا أن أبـــا هريرة لم ينفرد بهذه الزيادة، ولو انفرد بها لكانت مقبولة مرضية مكرمة، فقد رواها من الصحابة: "سفيان بن أبي زهير الشنئي"(78)

فـــتجريح أبي هريـــرة لا يجرؤ عليه إلا فاسق عدوّ الله وللرسول، وعدالته رضي الله عنه ثابتة منذ عهد الرسول إلى أن تقوم الساعة.

8)- أمـــا **الشـــبهة الثامـــنة** فهي دعواه أن "أسانيد الأحاديث في مجملها مختلفة موضعة"!:

- وإذا كـــان Gold ziher يزعم أن القسم الأعظم من المتون من صنع المســلمين في القــرنين الأول والثاني فإنه بالنسبة للإسناد يرى أنه "لم يظهر إلا في القرنين الثاني والثالث، وأن أسماء الرواة قد اخترعت اختراعا".[79]

** فعــبقرية شــيخ المستشرقين تفتقت عن هذا الخيال الواسع الذي زيف عشــرات الكتب التي درست الرجال فضبطت أسماءهم وأنسابهم وألقابهم وكناهم ونســبهم وبلدانهــم وشيوخهم وتلاميذهم ووصت رحلاتهم وعلاقاتهم الاجتماعية ونشاطاتهم العلمية.

فحولهـــم قولد زيهر جميعا إلى أكذوبة كبرى صنعها علماء الإسلام، وهي جرأة منه مهدت الطريق أمام تلاميذه والمعجبين به الذين صادفت افتراءاته هوى في نفوســهم للمضــي قدما في الطعن في السنة وروايتها، فهذا "كايتاني" يعتقد أنه في عهد عبد المالك بن مروان (65 - 86) أي بعد وفاة النبي ﷺ بأكثر من خمسين سنة لم يكن معروفا بعد استعمال الأسانيد في الأحاديث النبوية، وبناء على ذلك فالجزء الأعظــم من الأسانيد الموجودة في كتب السنة لا بد وأن تكون مما اختلقه المحدثون في القــرن الثاني، بل وفي القرن الثالث أيضا" وهو يستند في استنتاجه السخيف هذا على ما زعمه من أن " أقدم من قام بجمع الأحاديث هو عروة بن الزبير ت 94 هـــ وكان لا يستعمل الأسانيد، ولا يذكر مصدرا لكلامه غير القرآن الكريم". كما أن شبرنجر Sprenger يعتمد نفس المسند لينتهي إلى القول: "فما نسب إلى عروة من استعماله الأسانيد لا بد أن يكون شيئا متأخرا نسبيا".

أما "شاخت" فيرى "أن الأسانيد جزء اعتباطي في الأحاديث، وأن الأسانيد نمــت وتطــورت على يد الأحزاب المختلفة التي كانت تريد أن تنسب نظرياتها إلا أشــخاص مــرموقين من القدماء". فـــ "الأسانيد -عنده- بدأت بشكل بدائي

ووصـــلت إلى كمالها في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة.. وكانت الأسانيد -في زعمه- كثيرا ما لا تجد أدنى اعتناء.. وأي حزب يريد نسبة آرائه إلى المتقدمين يختار تلك الشخصيات ويضعها في الأسانيد". ويحذو "روبسن" حذو "شاخت" في هـــدم الأســـانيد فيقول وبكل جرأة : "إن الجزء السفلي من الأسانيد صحيح بينما الجزء العلوي الموصل إلى النبي خيالي وزائف.

وعملـــية التزييف هذه تمت في نظر شاخت حسب آليات ومراحل محددة: فقد جاءت"صناعة" النصوص متقدمة في الوجود، ثم اخترعت لها بعد ذلك الأسانيد التي ألصقت بالنصوص اغتباطهم، ثم تلت تلك مرحلة التحسينات التي أدخلت على تلـــك الأسانيد، وأخيرا توصل إلى نسبة الحديث إلى زمن متقدم[80]، وحتى سلسلة الذهـــب التي اعتبرها الإمام البخاري أصح الأسانيد: مالك عن نافع عن ابن عمر، يشكك فيها شاخت بتعلة:

أ- أن نافعا لما توفي سنة 117 هـــ كانت سن مالك لا تتجاوز الخامسة من عمره.

ب- وأن نافعـــا كان مولى. [والذي عليه المؤرخون أن مالكا ولد سنة 93 هـــ أو 94هـــــ فتكون سنه عند وفاة شيخه نافع أكثر من عشرين سنة أمّا أن يكون نافع مـــولى فهـــذا لا ضير فيه فالإسلام سوى بين الناس ووفر ديمقراطية التعليم وأسبابه للجميع].

ويلخص الدكتور الأعظمي في رسالته القيمة "دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه" مسألة دعوى اختراع الأسانيد بقوله: "وبإيجاز فإن هذه الافتراءات الخيالية تريد أن تبث في روع قارئها: أن مئات الألوف من الرواة أفنوا أعمارهم في وضع الأحاديث على رسول الله ﷺ، وتركيب الأسانيد لها مع تفاهم واشتراك فيما بينهم، وأوجدوا لنا كل هذه الثروة الثقافية من كتب الأحاديث والرجال".[81]

** المعلـــوم الثابـــت أن الصحابة رضوان الله عنهم كانوا لا يذكرون شيئا سمعـــوه من النبي ﷺ أو رأوه يفعله إلا نسبوه إليه، كما كانوا ينسبون القول لقائله سواء كان الرسول ﷺ أو غيره.

وهـــذا المـــنهج الذي اتبعه الصحابة منذ عهد الرسول ﷺ هو الذي أنتج الإسناد لا سيما بعد فتنة صفين، فقد أصبح التنقيب على الإسناد وتوثيق النصوص عمـــلا دقيقا. وما قارب القرن الأول نهايته حتى بلغ علم الإسناد مبلغا عظيما(82). والإسناد يعتبره العلماء من الدين ولهذا وجب التثبيت في رجال السنّد استمدادا من قولـــه تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا" -49 الحجرات6- وتأســـيا بمواقف حازمة للصحابة في هذا الباب، من ذلك أن سيدنا عليا رضي الله عـــنه قـــال وهـــو في مســـجد الكوفة "انظروا عمن تأخذون هذا العلم فإنما هو الديـــن"(83). وكـــان الإمام الزهري لا يقبل حديثا إلا مسندا ، فكان يقول أترقى الســـطح بلا سلم؟. وكان شعبة [ت 160هـــ] ينظر إلى فم قتادة [ت 117هـــ] فإذا قال: "حدثنا" كتب، وإذا قال: "قال"، لم يكتب، لأن الصيغة الأولى تدل على الاتصـــال والسماع من لفظ الشيخ، والثانية رغم أنها من صيغ الجزم إلا أنها دونها درجة.

9)- أمـا **الشبهة التاسعة** ويروّجها "شاخت" فمفادها أنّ "الأحاديث الفقهية التي تتناول مسائل الشريعة ليس فيها حديث واحد تصح نسبته إلى النبي ﷺ، وكل الأحاديث الفقهية وضعت في القرنين الثاني والثالث، ذلك أن الشريعة حسب خـــيال شـــاخت خارجة عن نطاق الدين، ولم يكن النبي ولا الصحابة والتابعون يكـــترثون لهـــذه المسائل ولذلك فهو يعتبر أن ما تذكره المصادر من جهود فقهية وتشريعية للرسول ﷺ والصحابة رضوان الله عليهم والعلماء من الكذب المختلق.

** وهذا الفكر الغريب الذي يطرحه شاخت لقي معارضة حتى من بعض المستشرقين أنفسهم فهذا "غوايتن Goitien" يقول: إن فكرة الشريعة ليست نتيجة للـتطورات التي طرأت بعد القرآن الكريم أو بمعنى آخر بعد وفاة الرسول –ص- ، بل صيغت من قبل محمد نفسه". وهذا "فيزجيرالد Fitz Gerall" يقول: "الإسلام يعتبر الله المشروع الوحيد وينفي بشدة لأي بشر كان سلطة التشريع". .

ثم إن شـاخت يغـذي شبهته الغريبة هذه بتصورات خيالية لا نقل عنها غـرابة، فهو يزعم أنه في حدود سنة 140هـ حدثت ولادة المدارس الفقهية التي كانت تناوئ السنة النبوية وتعارضها ، و أخذت تنسب أقوالها إلى شخصيات كبيرة مـن الماضـي ثم تطورت ونسبتها إلى شخصيات أكثر قدما ، ثم تطورت فنسبت أقوالهـا إلى شخصيات قديمة جدا كابن مسعود، وأخيرا تطورت فنسبت أقوالها إلى النبي ﷺ ثم ولد حزب معارضة يمثله المحدثون الذين وضعوا أحاديث مفصلة عن سيرة الرسول وأقواله وأفعاله.. ودخل هذا الحزب في صراع مع المدارس الفقهية فهزمها، و بذلك رسخت سلطة السنة النبوية .

لقـد حول شاخت الساحة الإسلامية إلى حلبة صراع بين أحزاب خيالية تخـوض معارك وهمية لا وجود لها إلا في خيال شاخت الخطيب. لقد تجاهل القرآن وهـو كـتاب المسـلمين الذي تنقله أجيالهم عن طريق التواتر المفيد للقطع، وهم يؤمـنون إيمانا قاطعا بنسبته إلى الله تعالى. وكان من الفروض أن شاخت- احتراما لأصـول البحث العلمي - أن يعتمده عند دراسة عقيدة المسلمين وشريعتهم حتى وإن كـان لا يؤمن بنسبة القرآن إلى الله، فعلى الباحث الموضوعي أن يفرق بين ما يعـتقده هو وبين ما يعتقده المسلمون. لكن وللأسف الشديد فإن الخلط شائع عند

عامة المستشرقين فهم يبحثون قضايا الإسلام لا من خلال وجهة نظر المسلمين وإنما من خلال وجهة نظرهم التي يسعون إلى فرضها لاستنباط أحكام غريبة منها.

فكـيف تكـون الشريعة خارجة عن الدين وآيات كثيرة تثبت تفرد الله بالتشـريع: {ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام لتفتروا عـلى الله الكـذب، إن الذين يفترون على الله الكذب لا يفلحون}" -16 النحل 116- {إنـا أنزلـنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله، ولا تكن للخائنين خصيما} -4 النساء 105- فمما نستخلصه من هذه الآيات العديدة:

1- أن الله تعالى خص نفسه بالتشريع، كما أعطى نبيه صلوحية التشريع.

2- وأنه تعالى طلب استسلاما تاما لأوامره ونواهيه في كل أمور الحياة.

3- ولـيس لأحـد أن يـبدل أو يغـير شيئا على الإطلاق حتى وإن كان رسولا مرسلا.

4- والشريعة تعم كل جوانب الحياة:

أ- العبادات بما فيها الزكاة

ب- الجهاد المشروع لحماية الدين ونشره والتنظيمات المترتبة عليه مما يندرج ضمن القانون الدولي.

ج- النظام الاجتماعي للفرد والأسرة.

د- أحكام الأطعمة و الأشربة و الألبسة ..

هـ- تنظيم أحكام المعاملات.

و- الجنايات وما يتعلق بها من عقوبات...

ثم إن الحقائق التاريخية تنسجم مع ما ورد في القرآن، وتسفه شاخت، فمن الناحـية الـنظرية: أمر الرسول ﷺ عمّاله بالقضاء بين الناس بما شرعّه الله. جاء في

كـــتابه ﷺ لعمـــر وبن حزم أنه أمره {أن يأخذ بالحق كما أمره الله، ومن الناحية العملـــية: كان الرسول ﷺ قاضيا: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا } -33 الأحزاب 36- كما كلف عددا من الصحابة بالقضاء.

ثم بم نفســر وجــود الآلاف مــن الأحاديث النبوية المتصلة الأسانيد إلى الرســـول ﷺ الـــتي ضـــمتها كتـــب السنة والتي تدل على مشاركة الصحابة في الأحـــداث؟ فمـــن أيـــن أتـــت؟؟ وما عن المكتبة الضخمة من ألوف كتب الفقه الإســـلامي؟ فإذا كان شاخت قد أخطأ في هذه القضية الأساسية كان من المفروض أن تـــرفض نتائجه في مجال السنة جملة وتفصيلا، إلا أن المستشرقين رغم معارضتهم لبعضهم في المسائل الجوهرية، فإنهم يغضون الطرف وينساقون بفعل الهوى إلى دعم الـــباطل، فهـــذا "كولسن" يقول عن نظرية شاخت الفاسدة كليا: (إنها غير قابلة للدحـــض في إطارهـــا الواســـع، وكـــل المستشرقين يستفيدون منها للقضاء على الشـــريعة)، إن القـــول بمعاداة الفقهاء للسنة النبوية وكون الأحاديث الفقهية كلها موضـــوعة، ونشـــوء الصراع بين المدارس الفقهية القديمة وأهل الحديث إنما هو من نتائج عقلية غريبة عن فهم المجتمع الإسلامي.(84)

10)- **الشبهة العاشرة**: التشـــكيك في صحة صحيح البخاري وفي سائر كتب السنة:

جـــاء في دائـــرة المعـــارف الإسلامية التي وضعها المستشرقون: إن (قيمة البخاري وغيره من أصحاب الصحاح لم تكن -كالخطأ الشائع- لأنهم قرروا لأول مـــرة أي هذه الأحاديث المتداولة كان صحيحا وأيها كان كاذبا، فرأيهم الخاص لم يكـــن لـــيؤثر كثيرا في الرأي الغالب، وإنما تنهض قيمة كتبهم في الأكثر على أنها

جمعت في صعيد واحد كل ما اتفق المؤمنون في عهدهم على أنه صحيح)، ثم تحاول الموسوعة أن تؤكد هذه الريبة في قيمة كتب السنة فتقول عنها: (لم يقع الإجماع على تقديرها إلا بعد تدرج طويل)، وتستشهد على ذلك بمجموعة ابن ماجة التي تقول عنها: (ظلت موضعا للريبة وقتا طويلا لما اشتملت عليه من الأحاديث الضعيفة العديدة). ثم تحاول توهين صحيحي البخاري ومسلم بدعوى تضعيف الدار قطني لمائتي حديث أورداها في صحيحيهما، كما يفتعل "قولديهر" قضية خلافية بين البخاري ومسلم في تحديد شروط الصحة ليثبت اختلاف منهجيهما فيقول: (إن شروط البخاري للصحة ليست هي الشروط التي رآها مسلم)[85].

** إن هذا الرأي من الموسوعة رأي غريب مجاف للحق، فالمعلوم عند العلماء أن المكانة التي تبوأها البخاري ومسلم واعتبار كتابيهما أصح الكتب بعد كتاب الله إنما كان لشروطهما المتشددة التي الزماها في صحيحيهما، فكانا لا يرويان إلاّ عن صفوة الصفوة من الرواة الذين توفرت فيهم أعلى درجات العدالة والضبط – وهما من المقولات بالتشكيك- ولا يوردان إلا ما توفرت أعلى شروط الصحة من اتصال السند الذي لا تشوبه شائبة وعدم الشذوذ وعدم العلة، والأمة إنما أجمعت على فضلهما بعد التثبت والتدقيق والنقد والتمحيص. فالمؤثر في صحة الحديث هو اختيارهما القائم على العلم الواسع والدراية الفائقة بعلوم المتن وعلوم السند، مع الإلمام بالغريب والعلل والمختلف والمشكل والفقه والأصول والبلدان والسير.. والعبرة عند البخاري ومسلم رحمهما الله هو إثبات ما صحّت نسبته إلى رسول الله ﷺ دون أن تأخذهما في الله لومة لائم. وقد رحلا والتقيا علماء الأمصار وسمعا وبحثا ونقبا واحتكما في حكمهما على الحديث إلى أعلى معايير النقد العلميّ الموضوعي.

أمّا زعم الموسوعة أنه لم يقع الإجماع على تقدير كتاب السنة إلا بعد تدرّج طويل فهذا يرده الواقع التاريخي فإنّ معاصري مؤلفي هذه الكتب وهم من أفضل العلماء عرفوا قيمة تلك الكتب وما أنجزه مؤلفوها من تنخيل الحديث وتصنيفه فهذا أبو داود ت 279 هـ عرض كتابه على الإمام أحمد ت 241 هـ أمير المؤمنين في الحديث، فاستحسنه واستجاده وأقرّ بفضل الكتاب قبل وفاة أبي داود بأكثر من أربعين سنة(86).

وهذا البخاري لعظمة ما حققه لسنة المصطفى ﷺ بالجامع الصحيح، أحبّه علماء الأمة حتى أن منهم من تمنى أن ينقص الله من عمره ويزيد للبخاري ليواصل خدمة السنة. بل نقرأ مبايعة للبخاري من جموع المسلمين:

المسلمون بخير ما بقيت لهم وليس بعدك خير حين تفتقد.

- أما ما زعمته الموسوعة حول سنن ابن ماجة فلا أساس له من الصحة، وهذا أبو زرعة الرازي [200 - 264 هـ] أحد كبار رجال الجرح والتعديل وأحد كبار المدققين في الحديث يقول عن كتاب ابن ماجة: (لم أجد فيه إلا قدرا يسرا مما فيه شيء، وذكر قريب بضعة عشر، أو كلاما معناه).(87)

- أمّا الدار قطني فإنما آخذهما لأنهما لم يلتزما ما اشترطاه من اختيار أعلى درجات الصحّة في الأحاديث القليلة التي ذكرها الدار قطني. يقول الشيخ أحمد محمد شاكر في تعليقه على ما جاء في الموسوعة الإسلامية (و لم يتفق المحدثون على ضعف أي حديث في هذين الكتابين بل اتفقوا على أنّ البخاري ومسلما مقدّمان على أهل عصرهما ومن بعدهم من أئمة هذا الفن في معرفة الصحيح من غيره)(88).

أمّا قول قولدزيهر: إنّ شروط البخاري للصحة ليست هي الشروط التي رآها مسلم، فإذا كان يقصد به ما اشترطه البخاري من وجوب ثبوت اللقاء وما

اكتفى به مسلم من المعاصرة، فلا خلاف بينهما في ذلك إذ أنّ المعاصرة مع الصدق والأمانة تؤدي إلى ثبوت اللقاء.

وأود في هـــذا المقـــام أن أستعرض ما ردّ به د. محمد حميد الله -طيّب الله ثراه- تشكيك المستشرقين في صحة الأحاديث الواردة في البخاري ومسلم وغيرهما مـــن كتب الرواية التي وصلت إلينا، فهو يقول: (إنّ فضلاء الإفرنج كانوا فكروا -كمـــا هو معروف- أن ما ذكره المحدثون من أمثال البخاري ومسلم وغيرهما-ممن وصلت إلينا كتبهم- لا يصح انتسابه إلى النبي ﷺ ولا إلى الصحابة ويرون أن هؤلاء المحدّثين:

أ- إما أنهم اخترعوا المتون واختلقوا الأسانيد من عند أنفسهم

ب- وإمـــا أنهـــم نقلـــوا في تأليفهم ما كان متداولا على ألسن الناس في عصـــورهم ممـــا هـــو بالمعارف الشعبية وبالفلكلور Folklore أكثر شبها منها بالتاريخ.

وكان أساس ادعاء هؤلاء المستشرقين:

1- أنه لا توجد كتب من كان قبل البخاري ومسلم.

2- وأنـــه لا توجـــد حجة على أن أسماء من ذكروا في الأسانيد مطابقة لحقيقة الحال.)[89].

ثم ينقض -رحمه الله- على هذه الدعاوى الباطلة بالنقض قائلا: (..إن مثل هـــذه الاحتمالات لا تنهض أمام ما اكتشف في السنين الأخيرة من كتب القدماء- لحســـن حـــظ العلم والتاريخ- فمثلا يقول البخاري: عن أحمد بن حنبل عن عبد الـــرزاق بن همام عن عمر بن راشد عن همام بن منبه عن أبي هريرة عن النبي ﷺ، فمـــا دام لم يوجد لدينا إلا صحيح البخاري جازت مثل هذه الشكوك والشبهات،

أما الآن فمسند أحمد مطبوع، ومصنف عبد الرزاق وجامع معمر بن راشد كلاهما مطبوع وصحيفة همام بن منبه مطبوعة، ونرى عند المقابلة بينها في الروايات أنه لا توجد أية فوارق بينهما، فإذا فات الشرط فات المشروط، فبطل زعم من زعم أن متون البخاري وأسانيده مختلقة.

وكذلك الحال بالنسبة لصحيح مسلم فمن أساتذته سعيد بن منصور فها نحن نعثر على سننه وتطبع ولعلنا نعثر يوما على المؤلفات الوسائط بين سعيد بن منصور والنبي ﷺ، فالحلقة من السلسلة لثاني الصحيحين-صحيح مسلم- وهي حلقة ثمينة جدا قد اكتشفت الآن.. فكلما روى مسلم عن سعيد بن منصور يمكن لنا أن نراجع سنن سعيد بن منصور، ونتحقق أن الإمام مسلما لم يكذب، ولم يخترع شيئا من عند نفسه ، بل أدى إلى من بعده ما تلقى ممن قبله بكل ديانة وأمانة.، ثم يشير الدكتور حميد الله إلى أننا لو طبقنا عشر معشار منهج نقد السنة على كتب الإفرنج من اليهود والنصارى.. فضلا عن عامة كتبهم التاريخية لم يثبت على النقد منها شيء يعتد به[90].

11)- **الشبهة الحادية عشرة**: أن المسلمين يعملون بالحديث الموضوع:

يقول كاتب مادة الحديث في الموسوعة الإسلامية "جوينبول Juynboll": (إن المسلمين رغم رفضهم الحديث الموضوع ولعنهم الوضاعين، إلا أنهم يأخذون بالحديث الموضوع إذا كان يتناول بعض العظات أو التعاليم الخلقية)[91]. ويحيل هذا الافتراء على كبيرهم "قولدزيهر".

** إن المسلمين مجمعون على تحريم الوضع إطلاقا في الحلال والحرام وفي فضائل الأعمال، أو ما يسميه هذا المستشرق "بعض العظات والتعاليم الخلقية" وفي

كـل المجـالات الأخـرى. وما افتكرته فرقة الكرامية الضالة من تجويز الوضع في الترغيب والترهيب دون ما يتعلق به حكم، ترغيبا للناس في الطاعة وترهيبا لهم من المعصـية كـان مخالفـا لإجماع المسلمين الذين يعتد بهم، بل بالغ الشيخ أبو محمد الجويني فجزم بتكفير واضع الحديث(92). فقولدزيهر جهل أو تجاهل ما نصت عليه كتـب الإسلام من تحريم الوضع وعدم قبول توبة الكذاب في حديث الرسول، أو تكفيره مثلما ذهب إلى ذلك إمام الحرمين الجويني، لأنه تعمد تبديل الحقائق.

12)- **الشبهة الثانية عشرة**: الوضـع أمر ميسور يعسر كشفه:

يزعم شاخت أن وضع الحديث من الأمور الميسورة الهينة التي يتعذر كشفها(93).

** لا يخفى ما في هذه الدعوى من تجاهل للحق، فلو كان أمر الوضع كما ذكـر هـذا المستشرق ما اضطر الخليفة العباسي إلى اضطهاد مخالفيه في محنة خلق القـرآن وبين يديه جيش من العلماء والقضاة وأهل الكلام وأساطين المعتزلة كافة، لقد عجز هؤلاء جميعهم عن الإتيان بحديث واحد مروي عن النبي يخدم قضيتهم في قصـة خلق القرآن، وهذا دليل صارخ على استحالة أن يوضع حديث دون كشفه وإبطـال نسـبته إلى الرسـول ﷺ، فهذه الحقيقة التاريخية وحدها كافية لهدم كل دعاوى "شاخت".

13)- **الشبهة الثالثة عشرة**: نفي كتابة الحديث في العصور الأولى:

ذهـب قولدزيهـر إلى نفي كتابة الحديث في العصور الأولى بعلة، -ما سماه التحرج الديني [التحرج الذي أبداه بعض الصحابة والتابعين من الكتابة] من جانب - والاهـتمامات العقيدية للفرق الإسلامية من جانب آخر. وهما أمران ثبطا عزائم الناس عن كتابة الحديث، ومن هنا تأخرت أولى بدايات جمع الحديث -في زعمه- إلى أواخر القرن الثاني والنصف الأول من القرن الثالث(94)، وعلى أساس تصوراته

الخاطـئة هذه عمد إلى رد الروايات الخاصة ببداية التدوين والتصنيف، فشكك في رسـالة عمر بن عبد العزيز إلى أبي بكر محمد بن حزم ت 120هـ التي يطلب منه فـيها كـتابة حديث الرسول ﷺ رغم أنها رسالة ثابتة برواية مالك بن أنس لها في الموطـأ، وابـن سعد في طبقاته والدرامي في سننه والبخاري في صحيحه، فيضرب هـؤلاء جميعا عرض الحائط، ويرى في هذه الرسالة –نزوع الأجيال المتأخرة – إلى محاولـة عقد صلة بين عمر بن عبد العزيز وكتب الحديث[95]. وحينما يواجه بنص واضح وصريح في إثبات الكتابة يلجأ قولدزيهر إلى تحريف معناه بطريقة تثبت سوء طويته وضربه الأمانة العلمية عرض الحائط. فهذا الإمام الزهري–حين أكرهه الخليفة الأمـوي العاشـر هشام بن عبد المالك (105 – 125) على كتب الحديث لبنيه– يقـول :" كنا نكره الكتب حتى أكرهنا عليه السلطان فكرهنا أن نمنعه الناس"[96] فما كان من قولدزيهر إلا أن حرف المعنى فقال: (إن الزهري اعترف بأنه على هذا الـنحو قـد مكـن الأمويـين من الحصول على ذرائع دينية تخدم مصالح أسرهم الحاكمـة)[97]، وما أبعد هذا الدس المريب عن حقيقة مراد الزهري الذي يريد أن يبين أنه كان يكره كتابه العلم – رغم أنه كان هو نفسه يكتب أثناء طلبه العلم– لما رأى أمـره آل إلى كراريس ودفاتر اتكل عليها العلماء وأهملوا الحفظ، وأمام طلب الخلـيفة وإلحاحه عليه أن يكتب لبنيه لم يجد بدا من الاستجابة لرغبته، وعندها أبى إلا أن يفيد الجميع من كتب العلم، فخرج وأملى على الناس الحديث.

وفي الحقـيقة فـإن الوثائق القديمة التي يشير إليها أحمد بن حنبل في علله والترمـيذي في سـننه وابـن أبي حاتم في تقدمته تثبت تقدم التصنيف وعودته إلى بدايـات القرن الثاني حتى أوائل قيام الدولة العباسية وهي تتحدث عن (وجود عدد

من علماء الحديث في مناطق مختلفة من الدولة، وصفوا بأنهم أول من صنف الكتب أو أول من صنف الحديث)[98].

ويتهم فؤاد سزكين قولد زيهر بأنه (لم يتعمق في دراسة القضية و لم ينتبه إلى الفرق الدقيق بين معنى مصطلح "التدوين" ومصطلح "التصنيف"، ولذا اختلطت عليه الروايات الخاصة بهما إختلاطا)[99]. وكان يوسف العش في تقديمه كتاب تقييد العلم للخطيب البغدادي بيّن أن سبب ظن من ظن أن الحديث ظل يتناقله الناس شفاهة أكثر من مائة سنة دون أن يكتبوه، يعود إلى خطأ في تأويل ما ورد عن المحدثين في تدوين الحديث وتصنيفه[100]، فإذا كان التقييد يعني الكتابة فإن التدوين يعني تجميع تلك الكتابات في ديوان وهو الكتاب الكبير، في حين يعني التصنيف التبويب والترتيب لتلك الكتابات. فقد كانت صحف كثيرة ورسائل عديدة وكتابات لا تحصى تناولت السنة بالتقييد منذ عهد النبي ﷺ يتداولها العلماء ويكتبونها ويستعيرونها منذ العهود الأولى[101]، فالرأي القائل بأن الحديث كان يروى شفويا عهدا طيلا من الزمن يصفه فؤاد سزكين بالرأي الخاطئ[102].

14)- **الشبهة الرابعة عشرة**: إنكارهم لنبوة محمد ﷺ:

إن كل الشبه السابقة التي افتجرها المستشرقون وما دبجوها به من تحريف وحشدوه لها من تزييف تصبح أمرا لا يثير الدهشة طالما أنهم يصدرون فيما يعلنون ويسرون عن حقد على الإسلام ورسوله وإنكار رسالته ونبوته.

فقد أنكر المستشرقون نبوة الرسول محمد ﷺ كما أنكروا تلقيه الوحي فغرقوا في مستنقع من التهم الباطلة التي استمدوا الكثير منها مما كان يروجه المشركون ومكذبو الرسل من عتاة الأمم السابقين، فهذا قولدزيهر يسمي الرسول ﷺ "مؤسس الإسلام"[103]، ويتساءل القسيس"وات منتقمري Montgomery":

هـــل كـــان محمـــد نبيا ؟ ويجيب عن سؤاله بقوله: "كان يتمتع بما يسميه الخيال المبدع"[104]، ويرى أن القرآن ليس وحيا إنما هو إنتاج الخيال المبدع، إلا أنه يستمد كثيرا من اليهودية والنصرانية.

أما "همفري بريدو Humphrey Pridraux" في القرن السابع عشر في كتابه عـــن حـــياة محمد ﷺ- الذي نال في الأوساط الغربية شهرة واسعة- فيجعل عنوانه الفرعي "الطبيعة الحقيقية للدجل" أي أنه يصف الرسول بالدجال -علا قدره ﷺ عن ذلك علوا كبيرا- وهو وصف يتساوق مع ما وصفه به المعجم الاستشراقي المنشور في فرنســا سنة 1697 من أنه "الأفاك المشهور بمحمد، مؤسس الهرطقة التي سميت دينا"[105].

أمـــا غوســـتاف لوبون، الفيلسوف الفرنسي المادي الملحد الذي كثيرا ما يوصـــف بالمنصـــف للإسلام لأنه يورد بعض شمائل الرسول ﷺ فإنه يصف الرسول "بـــالهوس فيقول: ويجب عدّ محمد من فصيلة المتهوسين من الناحية العلمية كما هو واضح" وذلك كأكثر مؤسسي الديانات[106].

والمستشرقون ينكرون أمية الرسول[107] ويفسرون أميته الواردة في القرآن الكـــريم بالانتماء إلى أمة اليهود [أي أنه من الأميين] وهي أمة العرب، وبناء عليه فهـــو قادر على تلقي العلم، وكان يعلمه بشر، وهذا البشر أحيانا يجعلونه نصرانيا أعجمـــيا كـــان يعمل حدادا في مكة فيختلف إليه الرسول ﷺ ليتعلم منه القرآن! وأحـــيانا يجعلونهـــم ورحالة يهودا ونصارى، وأحيانا رهبانا التقاهم الرسول ﷺ في رحلته إلى الشام وهو صغير مع عمه، ورحلته مع مسيرة غلام لخديجة في تجارة لها.

أمـــا ظاهـــرة الوحي فينكرونها ويفسرون ما يصحب تلقيه ﷺ الوحي من حالات الشدة كالرضاء [الحمى] وثقل جسمه وتصبب عرقا، بأنها نوبات صراع أو

اضـــطرابات عصبية أو هستيرية، يقول تيودور دولدكيه في كتابه عن تاريخ القرآن [1909]: " محمدا كانت تنتابه نوبات عنيفة من الانفعال جعلته يظن أنه تحت تأثير إلهـــي أي يظـــن أنه يتلقى وحيا"!(108) أما مارغريث Margoliouth الإنجليزي المتعصـــب ضـــد الإســـلام فيزعم في كتابه "محمد وظهور الإسلام"[1905]: أن الرســـول ﷺ بادعائـــه الوحي قد ضلل الناس عمدا(109). وأباح بعض المستشرقين لأنفســـهم أن يلصقوا بالرسول الكريم ﷺ أكاذيب بشعة بشاعة حقدهم وكراهيتهم للإسلام فوصفه بالجنون وبالسحر،وبالشهوانية والدعوة إلى الإباحية الجنسية والغدر والعـــنف بـــل بلغ الكذب والجهل ببعض كتابهم أن وصف الرسول ﷺ بأنه كان ســـاحرا هدم الكنيسة في إفريقيا بالسحر والمكر وبإباحة الاختلاط الجنسي!؟ وهذه أغنية رولاند cganson de Roland حشوها ببعض الأوهام والخرافات فجعلت من المسلمين وثنيين يعبدون ثلاثة آلهة: محمد، ونرفاجان، وأبولو(110).

** ونظـــرا إلى أن هذه الأكاذيب مستمدة مما افتراه أسلافهم من المشركين فسوف نكتفي بذكر ما رد القرآن به عليهم تخرّصهم وإرجافهم، يقول الله تعالى في رد تهمـــة الســـحر والجنون: {كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتوصوا به، بل هم قوم طاغون} -51 الداريات 52، 53- ويقول في رد تهمـــة نفـــي الأمية عنه ﷺ: {وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذن لارتاب المبطلون} -29 العنكبوت 48- أما عن زعمهم أنه ﷺ يتلقى القرآن عن بشر فيقول القرآن العزيز: {ولقد تعلم الهم يقولون إنما يعلّمه بشر، لسان الذي يلحدون إليه أعجميين وهذا لسان عربي مبين} -16 النحل 103-

كمـــا أن القرآن ردّ تهمة الكذب والافتراء والأسطورة عن القرآن الكريم، ووصـــف أصحاب هذه التخرصات كلها بالكفر والظلم والتزوير بيّن أنه أنزله الله:

{لم يقولـــون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صـــادقين} -10 يونس 38- {وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه علـــيه قوم آخرون، فقد جاءوا ظلما وزورا وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملي عليه بكرة وأصيل قل أنزله الذي يعلم السرّ في السموات والأرض..} -25 الفرقان 4، 5، 6-

** أمـــا اتهامه ﷺ بالشهوانية لزواجه عليه الصلاة والسلام بالسيدة زينب بنت جحش، فهذا الزواج لم يختره الرسول وإنما زوجه الله تعالى لتشريع تحريم التبني الـــذي كان سائدا في العهد الجاهلي[111] ، قال تعالى: {فلما قضى زيد منها وطرا زوّجـــناكها لكـــي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج ادعيائهم إذا قضوا منهنّ وطـــرا وكـــان أمر الله مفعولا}-33 الأحزاب 37- ثم كيف يكون شهوانيا من اقتصـــر عـــلى زوجـــة واحـــدة تكبره بخمس عشرة سنة طوال شبابه حتى تجاوز الخمســـين !؟ وكيف يكون شهوانيا من عاش الزهد والتقشف ورفض حياة الترف رغـــم مـــا أنعم الله عليه به عليه من سعة، حتى أمر بتخيير زوجاته بين الرضا بهذه الحياة الشظفة وبين الطلاق: {يا أيها النبي قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينـــتها فـــتعالين أمتعتكن وأسرّحكن سراحا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد لمحسنات منكن أجرا عظيما}-33 الأحزاب 29، 28-

** أما اتهام الرسول بالغدر لأن سرية عبد الله بن جحش قاتلت المشركين في رحب الشهر الحرام من السنة الثانية للهجرة[112] ، فإن القرآن تولى دحض هذا الادعاء فقال تعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه، قل قتال فيه كبير وصدّ عـــن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل..}-2 البقرة 215-

أما ما نال يهود بني قريظة من عقاب رادع جزاء نقضهم العهد مع رسول الله ﷺ وتآمرهم مع المشركين أثناء غزوة الأحزاب للقضاء على الرسول والمسلمين وهـــم محاصـــرون بالمدينة[113] فلا يعد غدرا بل هو العدل والإنصاف حتى يكونوا عبرة لكل من ردعهم وجعلهم يفكرون أكثر من مرة قبل الإقدام على نقض العهود والغدر والخيانة.

أمـــا وصف المسلمين بالوثنية وإباحة الاختلاط بين الجنسين فهذا لن يدعي إلا مفـــتر جاهل، فالإسلام دين التوحيد الخالص، والمسلم يعيش التوحيد في صلاته وآذانـــه وتشهده وذكره.. وهو دين يحرم كل ما يمت للشرك بصلة كاتخاذ الصور والتماثـــيل والأصـــنام، دين يحارب حتى الشرك الخفي المتمثل في الكبر ونحوه من الخلال التي توحي بمشاركة الله في توحده وعظمته وكبريائه.

والإســـلام يحرم الاختلاط حتى في حلقات العلم، فقد كان النبي ﷺ يجعل للنساء يوما على حدة في العلم، ويحفظ الأعراض والأنساب حفظه الدماء والأموال، ويعاقب على جريمة الزنا بالجلد وبالرجم.

هل نجح المستشرقون في تحقيق أهدافهم؟

إن ما تسلحت به الحركة الاستشراقية منذ البداية حتى النهاية -إلا ما رحم ربـــك- من حقد وعداوة للإسلام وأصوله وقيمه وشريعته سد عليها منافذ الحكمة وجعـــلها تصـــدر في استنتاجاها عن الهوى فلا تتحرك من الكذب والتحريف ولي أعـــناق الحقـــائق الواضحة الأمر الذي جعلها تفشل الفشل الذريع في خطتها، فلم تحقـــق شيئا من أهدافها و لم تتمكن من زعزعة اعتقاد المسلمين ولا خلخلة تمسكهم بكـــتابهم وســـنة نبيهم، نعم استطاعت اقتناص شواذ من المسلمين ممن احتضنتهم المـــدارس الصليبية منة الروضة حتى الجامعة فوقعوا صرعى ضلال أساتذهم فتحولوا

مـــن حيث يدرون أو لا يدرون إلى ببغاوات يرددون زيغ أساتذهم من المستشرقين دون نقد ولا حجة أو بينة، إلا أن صيحات هؤلاء المغرر بهم الهلكى ذهبت في واد ولم تجـــد آذانا صاغية من عامة المسلمين فضلا عن خاصتهم وعلمائهم المتجذرينفي العلوم رواية ودراية الذين واجهوا افتراءات المستشرقين ورأوا فيها افتراءات مسفة لا تصدر إلا عن حاقد جاهل.

هل المستشرقون مؤهلون لدراسة الإسلام دراسة علمية موضوعية ؟ وهل هم أهل لمجادلتهم ومناقشتهم؟

إن موقــف المستشـــرقين مـــن الإسلام عموما يمثل عداوة عقائدية من أشد العـــداوات وأخبثها في تاريخ الإسلام لأنه موقف لا يجمع عداوة المشركين وعداوة اليهود وعداوة الصليبيين الذين أظلتهم مؤسسة واحدة وحدت بين جهودهم وهي مؤسسة الاستشراق.

ونظـــرا إلى أن المستشرقين تجردوا من أهم شروط الموضوعية العلمية حين تجـــردوا مـــن الأمانـــة والصدق، فاتخذوا من الإسلام موقفا مسبقا قوامه العداوة والتعصـــب والكيد لأهله فإنه لا يمكن أن يكون الواحد منهم موضوعيا في دراسة موضـــوع يشعر نحوه بهذا الكم الهائل من العداوة والحقد والبغضاء. ثم إن الدارس للإســـلام لا يمكن أن يكون موضوعيا وهو ظهير الاستعمار ومتورط في محاولات تنصـــير المسلمين والتآمر على بلادهم، ومؤيد للصهيونية وعميل للمخابرات ومعين لكل جهة تعلن عداءها للإسلام والمسلمين.

ثم إنهـــم بافتراءاتهم المتتابعة على الله ورسوله متطاولة يعدون –على ملاحظ د. أحمد غراب– من الظالمين الذين استثناهم الله من الجدل بقوله عز من قائل: {ولا

تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا منهم} -العنكبوت 46- لكن رد طعونهم وبيان جهلهم وكشف دسائسهم تبقى من الواجبات الأكيدة التي ترقى إلى فروض الكفاية في حق علماء الأمة، ولا يعني ذلك أننا نكره أحدا على اعتناق الإسلام إذ لا إكراه في الدين، أو أننا لا نقبل الرأي المخالف المبرّأ عن الحقد والعدوان {بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق} -21 الأنبياء 18-

الهوامش

[1] - تاريخ فلسطين منذ أول غزو يهودي حتى آخر غزو صليبي 165 - 184 ظفر الإسلام خان - ط5/ 1406هـ - 1986م دار النفائس بيروت.

[2] - انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 188 - د. الشيخ مصطفى السباعي - ط4 - 1405هـ المكتب الإسلامي بيروت- دمشق.

[3] - رؤية إسلامية للاستشراق 7- د. أحمد عبد الحميد غراب - ط2 - 1411هـ، المنتدى الإسلامي centre 7 bridge place Green London SW 64.

[4] - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري 30 د. محمود زقزوق - ط2 / 1405 هـ، 1985م - مؤسسة الرسالة، بيروت.

[5] - الاستشراق في السيرة النبوية 21 - د.محمد الأمين النعيم- المعهد العالمي للفكر الإسلامي - سلسلة الرسائل الجامعية. ط1 - 1417هـ/ 1997م.

[6] - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري 44 - د. محمود زقزوق.

[7] - رؤية إسلامية للاستشراق 59 - 60.

[8] - انظر الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع 45 -46، ورؤية إسلامية للاستشراق 10.

9 - الاستشراق في السيرة النبوية 19 -20 الاستشراق والمستشرقون 20 -21 د. مصطفى السباعي ط1 - 1420هـ/ 1999 م دار الوراق المكتب الإسلامي- بيروت.

10- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 188- 189.

[11] - لسان العرب 13/ 225 لبن منظور -دار صادر- بيروت.

[12] - فتح الباري - كتاب الاعتصام 13/ 302- ابن حجر العسقلاني (رقم كتابه وأبوابه وأحاديثه محمد فؤاد عبد الباقي وأشرف على طبعه محب الدين الخطيب - طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية) وأخرج نحوه مسلم في العلم - باب من سنة حسنة 2059/4 - 2060 - وفي الزكاة - باب الحث على الصدقة 2/ 705 حديث رقم 1017 (حققه ورتبه محمد

فؤاد عبد الباقي ط1- 1374هـ/ 1955م عيسى بابي الحلبي – القاهرة.) وأخرج نحود الترميذي في العلم – باب ما جاء فيمن دعا إلى هدى 5 / 43 حديث رقم 2675 (طبعة مصطفى ببابي الحلبي 1356 – 1388هـ- القاهرة).

13 – النهاية في غريب الحديث 2/ 409 لبن الأثير، لسان العرب 13/ 225 لابن منظور.

14 – أصول علم الحديث بين المنهج والمصطلح 141 – أبو لبابه حسين – ط1/ 1997م – دار الغرب الإسلامي – بيروت.

15 – دائرة المعارف الإسلامية 13/ 389 (أصدرها بالإنجليزية والفرنسية والألمانية أئمة المستشرقين في العالم- النسخة العربية إعداد وتحرير: إبراهيم زكي خورشيد – احمد الشنتاوي – د. عبد الحميد يونس، ط2 / 1996م دار الشعب. وانظر كذلك: دراسات في البحث النبوي وتاريخ تدوينه 1 /5- 7.

16 – انظر دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه 1/ 10.

17- المستشرق شاخت والسنة النبوية 67/1 – د. مصطفى الأعظمي (منشورات ضمن كتاب مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية – بنشرته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، ومكتب التربية العربي لدول الخليج) وانظر كذلك الدراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه 1/ 28 -29.

18 – قواعد التحديث 52 محمد جمال الدين القاسمي – ط2 / 1961 – عيسى بابي الحلبي – القاهرة.

19- دائرة المعارف الإسلامية 13/ 391.

20- المستشرق شاخت والسنة النبوية 1/ 67 -68. للأعظمي.

21- تاريخ التراث العربي 1/ 17 فؤاد سزكين – طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض.

22- السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 189- د. مصطفى السباعي.

23- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري 102 – د. محمود زقزوق.

24- المصدر السابق 101- وانظر الحديث والمحدثون 302 – 303 الشيخ أبو زهو – رؤية إسلامية للاستشراق 94 – د. احمد غراب.

25 – انظر دائرة المعارف الإسلامية 13/ 390 – 391.

26 – سنن أبي داود 185/2 حدي عدد 1905-ط1-1371هـ مصطفى البا الحلبي-القاهرة-صحيح مسلم 890/2 الموطأ 560.

27 – سنن ابن ماحة 3/1- عيسى الحلبي 1972 -القاهرة.

28 – انظر السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 195 – 196 – والاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري 105 – 10.

29 – الاستشراق والمستشرقون 55- 56 د. مصطفى السباعي.

30 – دائرة المعارف الإسلامية 13 /390 – 391.

31- رؤية إسلامية للاستشراق 94ن وحديث جبريل رواه عمر مرفوعا (الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله...) مسلم 37/1 حديث عدد 8.

32 – دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه 2 /460 – 461.

33 – السنة ومكانتها في التاريخ الإسلامي 190 – الحديث والمحدثون 304.

34 – الحديث والمحدثون 305.

35 - الجرح والتعديل - أبو لبابة حسن- ط2 1983 - دار اللواء للنشر والتوزيع - الرياض.

36 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 201.

37 – سير أعلام النبلاء 225/4. 230. 231.

38 - الحديث والمحدثون 305.

39 - السنة ومكانتها في التشريع 205.

40 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 192- الحديث والمحدثون 306 - الاستشراق والمستشرقون 58.

41 - الصحيح 2/ 1015 الحديث عند 511.

42 - لصحيح 2/ 975- 976 الحديث رقم 415.

43 - المسند 2/ 501.

44 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 217 - 220 دراسات في الحديث النبوي وتاريخ تدوينه 457/2 - 459.

45 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 220.

46 - انظر خبر هيج الجماجم أبو دير الجماجم أو فتنة ابن الأشعث في تاريخ خليفة بن خياط 281/1 - 282 تحقيق ضياء العمري ط1 -1386هـ / 1967 م – النجف، العراق.

47 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 223.

48 - الباعث الحديث 20 - تدريب الراوي 1/ 77- مقاصد الحديث للشيخ مصطفى أمين التازي 92/2.

49 - انظر الحديث والمحدثون 307.

50 - انظر مجموع هذه التهم في الحديث والمحدثون 308 - السنة ومكانتها في التشريع 192 - 226 - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري 102.

51 - الحديث والمحدثون 309-310، السنة ومكانتها في التشريع 227- 229.

52 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 193، 229، 226.

53 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 229.

54 - موضوعات ابن الجوزي 1/ 41 - تدريب الراوي 1/ 282.

55 - أبو الوليد الباجي وكتابه التعديل والتجريح 2/ 587 ترجمة رقم 396 - أبو لبابة حسين - دار اللواء للنشر والتوزيع، ط1- 1985- الرياض.

56 - الحديث والمحدثون 311 - السنة ومكانتها 230.

57 - كتاب معرفة علوم الحديث - 111 (الحاكم النيسابوري - المكتب التجاري- بيروت) تدريب الراوي 1/ 232 مقاصد الحديث في القديم وفي الحديث 2/ 197 - 198 د.مصطفى أمين التازي- ط5 مطبعة دار التأليف - مصر - القاهرة.

58 - مقاصد الحديث في القديم وفي الحديث 192 - 193.

59 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 193.

60 - السنة ومكانتها 233 - الحديث والمحدثون 314.

61 - انظر جامع بيان العلم وفضله 2/ 233 (المكتبة السلفية - المدينة المنورة - ط2/ 1388هـ / 1986م)

62 - الحديث والمحدثون 314.

63 -دائرة المعرفة الإسلامية 393/13.

64 - أبو الوليد الباجي وكتابه التعديل والتجريح 280/1.

65 - التقييد والإيضاح للعراقي 301 - الكفاية للخطيب 97.

66 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 194 - أورد ابن كثير في البداية والنهاية 2/ 180 قصة أبي كرب ملك اليمن مع أهل المدينة.

67 - أصول علم الحديث بين المنهج والمصطلح 112.

68 - سنن أبي داود - الزكاة - باب في زكاة السائمة 98/2 الحديث رقم 1568 (المكتبة الإسلامية إسطنبول - تركيا).

69 - تقييد العلم تحويله 141- طبقات ابن سعد 267/1 - المصباح المضي على كتاب النبي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي 217/2.

70 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 235.

71 - الحديث والمحدثون 162.

72 - الحديث والمحدثون 162.

73 - السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي 193، والحديث رواه مسلم - المساقاة - باب الأمر بقتل الكلاب 3/ 1200 حديث رقم 1571.

74 - دائرة المعارف الإسلامية 13/ 393.

75 - فتح الباري 7/ 75.

76 - الموضوعات 1/ 55.

77 - انظر رد فضيلة الأستاذ محمد عرفة في الحديث والمحدثون 162 - 166.

78 - الحديث والمحدثون 315، انظر صحيح مسلم 3/ 1204، حديث عدد 1576.

79 - تاريخ التراث العربي 1/ 151.

80 - دراسات في الحديث وتاريخ تدوينه 2/ 392، 394، 422، 416، 424.

81 - نفس المرجع 2/ 435.

82 - نفس المرجع 2/ 391 - 392.

83 - الكفاية 196.

84 - شاخت والسنة 1/ 69، 70، 78، 79، 81، 84، 85.

85 - 13/ 397 - 398.

86 - انظر سير أعلام النبلاء 13/ 209.

87 - شروط الأئمة السنة للمقدسي ت 507 هـ ص: 19.

88 - الموسوعة الإسلامية 13/ 407 – 408.

89 - كتاب السنن لسعيد منصور 17/1 (حفظة الشيخ حبيب الرحمان الأعظمي – ط1 مطبعة علمي بريس مالكاون 1967).

90 - التقديم الذي كتبه حميد الله سعيد بن منصور 17/1 -18.

91 - دائرة المعارف الإسلامية 393/13.

92 - تدريب الراوي 283/1 - 284.

93 - شاخت والسنة 1/ 93.

94 - تاريخ التراث العربي 1/ 118.

95 - تاريخ التراث العربي 1/ 121.

96 - حلية الأولياء وطبقات الأصفياء 363/3 - أبو نعيم الإتفاني – دار الكتب العالمية – بيروت .

97 - تاريخ التراث العربي 1/ 141.

98 - تاريخ التراث العربي 122/1.

99 - تاريخ التراث العربي 120/1.

100 - تصدير تقييد العلم 5-8 للخطيب البغدادي، كتبه يوسف العش ط2 - 1974 دار إحياء السنة النبوية.

101 - انظر المدخل إلى فتح الباري ص 7 وما بعدها – سيد أحمد صقر – طبعة الأهرام 1972م.

102 - تاريخ التراث العربي 1/ 125.

103 - الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري 102 محمود زقزوق.

104 - رؤية إسلامية للاستشراق 120 د. أحمد غراب.

105 - أنظر رؤية إسلامية للإستشراق30، 31.

106 - رؤية إسلامية للاستشراق 138.

107 - رؤية إسلامية للاستشراق 14- 15.

108 - رؤية إسلامية للاستشراق 38.

109 - رؤية إسلامية للاستشراق 38، 47.

110 - رؤية إسلامية للاستشراق 129 نقلا عن سوذرن souther "وجهات النظر الغربية للإسلام في القرون الوسطى"

111 - انظر تفصيل ذلك في "السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة " 299- 301.

112 - انظر المصدر السابق 2/ 120.

113 - انظر تفصيل ذلك في السيرة النبوية في القرآن والسنة 2/ 120